# الفصل الأول

## منهجه في توحيد الربوبية

يتضمن توحيد الربوبية عند جمهور أهل السُّنَّة والجماعة إثبات وجود الرب سبحانه، ووحدانيته وانفراده بالخلق والرزق والتدبير وسائر أفعاله سبحانه .

وفي هذا الفصل سأعرض للقضايا المتعلقة بهذا النوع من أنواع التوحيد ، وموقف سيد قطب - رحمه الله - منها مقارنة بمنهج السلف من خلال المباحث الآتية :

**المبحث الأول : وجود الله ووحدانيته .**

**المبحث الثاني : موقفه من القول بقدم العالم .**

**المبحث الثالث : موقفه من وحدة الوجود .**

**المبحث الرابع : منهجه في الإيمان بالقدر.**

obeikandl.com

obeikandl.com

## المبحث الأول

# وجود الله ووحدانيته

مسألة وجود الله تعالى لم تكن موضع استدلال في القرآن الكريم ، بل كانت هي نفسها دليلًا – في الكتاب العزيز – استدل به على ألوهية الله واستحقاقه للعبادة .

فهي مسألة بدهية فطرية حتى عند ذوي العقول المنحرفة من المشركين ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]. وظلت المسألة بدهية في عصر النبوة والقرون المفضلة كذلك ،حتى كانت الفلسفة اليونانية ودخولها إلى العالم الإسلامي فنشأت مباحث لم تكن من قبل ، ومنها مسألة النقاش والاستدلال على وجود الله تعالى ، وكان "المتكلمون" المسلمون هم الطرف الإسلامي في هذا النقاش .

" وأما في هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة ، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة ، يتوكؤون على مسائل من العلوم العصرية، وحدثت للناس آراء ومذاهب منها ما يفضي إلى فساد الحياة " [2].

ومع أنهم – أي الملاحدة – لا يقدرون على تقديم أدلة على إلحادهم وكل ما يقدمونه شبهٌ واهية ، فإن العلماء والدعاة في هذا العصر كانوا مضطرين للخوض في مسألة إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وبيان شبهات وأفكار الملاحدة الجاحدين ولسان حالهم : " لو لا كثرة الضعفاء ، مع كثرة الدخلاء فينا ، الذين نطقوا بألسنتنا، واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا ، لما تكلفنا كشف الظاهر، وإظهار البارز " [3].

ومن هؤلاء الدعاة والمفكرين سيد قطب – رحمه الله – والذي تعرض في كتاباته لشبهات الملحدين وبين في ظلال كثير من الآيات الدلائل القرآنية على وجود الله – سبحانه –ووحدانيته . وهذا ما نعرض إليه في المطالب الآتية :

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٢) منهج محمد رشيد رضا في العقيدة، د. تامر محمود متولي ص٢٦٩.

(٣) دلائل التوحيد ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٥ ، ص ٧٥ .

## المطلب الأول

## مناهج الاستدلال على وجود الله وموقف سيد قطب منها

اختلفت مناهج الفرق في طرق الاستدلال على وجود الله تعالى ويمكننا إيجاز مسالكهم فيما يأتي :

### أولًا : منهج المتكلمين :

سلك المتكلمون في إثبات وجود الله تعالى طرقًا متعددة وكان عمدتهم في ذلك "حدوث العالم " ذهابًا منهم إلى أن الحدوث هو العلة المحوجة إلى مؤثر، وأنه إذا ثبت أن العالم حادث ، كان لا بد له من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود وقد بين ذلك الإيجي[١] بقوله : " قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض ، وقد يستدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه، فهذه وجوه أربعة " [٢].

وقد ذكر ابن رشد [٣] هذا المسلك على أنه للأشاعرة ، إلا أنه أشار إلى موافقة المعتزلة لهم فيه بقوله: " وأما المعتزلة فإنه لم يصل إلينا في هذه الجزيرة من كتبهم شيء نقف منه على طرقهم التي سلكوها في هذا المعنى ويشبه أن تكون طرقهم من جنس طرق الأشاعرة " [٤]. والأمر كما قال [٥].

### ثانيًا : منهج الفلاسفة :

سلك الفلاسفة في إثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والإمكان ، وقسموا

---

(١) هو : عبدالرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الإيجي، ولد بإيج من أعمال فارس بعد السبعمائة ،وكان إماما في فنون متعددة ، له عدة مؤلفات، سجن ومات في السجن بكرمان، عام ٧٥٦هـ ، انظر: الدرر الكامنة لابن حجر : ٢/ ٣٢٢، والأعلام ،٣/ ٢٩٥.

(٢) المواقف في علم الكلام ، للإيجي، دار عالم الكتب- بيروت، ب.ت، ص ٥ .

(٣) هو : محمد بن أحمد بن محمد بن رشد – الحفيد – أبو الوليد ، فيلسوف وفقيه مالكي شهير ، ولد في قرطبة سُنَّة ٥٢٠هـ ،له عدة مؤلفات ، توفي سُنَّة ٥٩٥هـ ،انظر : الديباج المذهب ، لابن فرحون ،٢/ ٢٥٧ .

(٤) مناهج الأدلة في عقائد الملة ، لابن رشد ، تحقيق د/ محمد قاسم ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ب.ت ، ص ١٥١.

(٥) انظر كلام المعتزلة في : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص٩٢ .

الموجودات إلى واجب وممكن بدلًا من قديم وحادث ، وذلك لأنهم لا يقولون بحدوث العالم ، فاستدلوا بالإمكان بدل الحدوث ، وقد لخص الإيجي مسلكهم بقوله : " المسلك الثاني للحكماء وهو أن- في الواقع - موجودًا ، فإن كان واجبًا فذاك ، وإن كان ممكنًا احتاج إلى مؤثر، ولا بد من الانتهاء إلى الواجب وإلا لزم الدور والتسلسل "[1] وهذا محال .

**وخلاصة كلام الفلاسفة :** أن الممكن لا يوجد إلا لعلة تغايره ، وذلك أن الممكن إما أن يحتاج إلى غيره ليكون موجودًا أو لا يحتاج ، والثاني باطل ، فإذا تقرر احتياج الممكن إلى الغير ، فإن الغير إما أن يكون واجبًا وإما ممكنًا ، والكلام في الممكن الثاني كالكلام في الممكن الأول . فإما أن ينتهي الأمر إلى واجب ؟ أو يدور أو يتسلسل إلى غير نهاية .

وهذه الطريقة كما هو ظاهر طريقة عقلية نظرية جدلية ،مبنية على مقدمات منطقية أعقد وأطول من مقدمات المتكلمين في مسألة " حدوث العالم " وهي مع ذلك أشد فسادًا منها وأسوأ لازمًا[2].

## ثالثًا : موقف سيد قطب من منهج المتكلمين والفلاسفة في إثبات وجود الله :

سبق الحديث عن موقف سيد - رحمه الله - من الفلسفة وعلم الكلام[3] ، وتبين لنا أنه يرفض منهج المتكلمين والفلاسفة في عرض قضايا العقيدة عمومًا، ويرى أنها مناهج بينها وبين منهج القرآن في عرض العقيدة جفوة ، وبناءً على ذلك لا يصح استعارة القالب الفلسفي في عرض حقائق العقيدة لأن ذلك يقتلها ويطفئ إشعاعها " وبالتالي تصبح البراهين الذهنية التجريدية على وجود الله - سبحانه- وهي التي أتجه إليها علماء التوحيد - بتأثير منطق أرسطو - والتي تعتمد على المقولات العقلية وحدها، بعيدة في منهجها، وغريبة على المنهج الإسلامي وهذا المنهج القرآني ، لأنها

---

(١) ينظر : المواقف في علم الكلام ، للإيجي ص ٨ ، وكذا الإشارات والتنبيهات ، لابن سيناء ٣/ ٢٠ .

(٢) ينظر في نقد منهج الفلاسفة : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٨ وما بعدها ، والنبوات لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ١٩٨٢م، ص٧٣-٨٤ ، ومنهاج السُّنَّة ١/ ١٤٨، وما بعدها.

(٣) ينظر : المبحث الثالث - الفصل الأول - الباب الثاني .

أضعف أنواع البرهان في هذا المجال، وأدعاها للجدل والمراء"[١].

فسيد - رحمه الله - يرى أن المنهج القرآني وحده هو المنهج الحق ، وأن طريقة القرآن في عرض قضايا العقيدة وحدها هي الطريقة الصحيحة، ويقرر بيقين جازم أن " التصور الإسلامي " لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ إلا حين نلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم " الفلسفة الإسلامية " وبكل مباحث " علم الكلام" وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة ثم نعود إلى القرآن الكريم ، ومنهجه في عرض العقيدة[٢].

ومن خلال تتبع ما ذكره سيد - رحمه الله - من استدلال على قضية وجود الله سبحانه نجد أنه يركز على الأدلة الشرعية الواردة في القرآن الكريم ، ويؤكد أن منهج القرآن في إثبات الوجود الإلهي هو المنهج الحق ، القائم على أن معرفة الله والإقرار بوجوده أمر فطري في النفوس .

كما نجده يتعرض بالنقد لمناهج المتكلمين والفلاسفة في إثبات الوجود الإلهي كونها مناهج تجريدية تقوم على أن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر والاستدلال حسب مقدماتهم في ذلك .

ولذلك عمل على عرض حقائق العقيدة من خلال المنهج القرآني وحده ، رافضًا كل التصورات التي جاءت بها الفلسفات أو التي يتمحلها بعض الملحدين باسم " العلم " [٣].

**يقول - رحمه الله - :** " فالمنهج القرآني لا يجعل " وجود الله "- سبحانه - قضية يجادل عنها فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري - من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء - بحيث لا يبقى هنالك مجال للجدل حوله ، إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود في الكون كله ، وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري وفي الحياة البشرية " [٤]. " وهذا

(١) ينظر كلام سيد في : خصائص التصور الإسلامي ص ١٠-٢٢ ، ومقومات التصور الإسلامي ص٢٧٨ .
(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ١٢ .
(٣) ينظر كلام سيد في هذا الشأن في : مقومات التصور الإسلامي ص ٢٠٠ وما بعدها .
(٤) المصدر السابق ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

هو الفارق الأصيل بين خطاب المنهج القرآني للكينونة البشرية.. وبين خطاب الفلسفة واللاهوت وعلم الكلام للذهن بالتصورات التجريدية أو بالجدل البارد الذي لا يصل قط إلى الإقناع المؤثر المحيي للقلوب والعقول " [1].

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦ بتصرف يسير .

obeikandl.com

## المطلب الثاني

## منهج سيد قطب في تقرير وجود الله ووحدانيته والاستدلال عليه

في هذا المطلب نقف على منهج سيد قطب - رحمه الله - في الاستدلال على وجود الله تعالى ووحدانيته، والطرق التي سلكها في هذا الباب والتي تتمثل في :

١- الاستدلال بالفطرة .

٢- الاستدلال بالآيات الكونية في الآفاق والأنفس .

٣- الاستدلال بالأدلة العقلية .

٤- الاستدلال بالمعجزة . وذلك في الفروع الآتية :

### الفرع الأول : الاستدلال بالفطرة

يرى - سيد قطب - أن الإقرار بوجود الله ووحدانيته وربوبيته للخلق أمر فطري مركوز في النفس البشرية ، فما من مولود إلا ويولد على هذه الفطرة ، وبالتالي يجعل من الفطرة دليلًا أصيلًا على وجود الله ومعرفته .

**١- يقول- رحمه الله -:** " إن الفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد ، ما لم تفسد وتنحرف" [١]، وذلك " لأن الفطرة مجذوبة إلى الذي فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها ، ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها ، والتوجه إلى الخالق هو الأوْلى، وهو الأول، وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري " [٢]، " وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته ، ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة " [٣].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٨.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٦٣.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٧٩٤.

٢- كما يقرر أن " فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر، ويسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب، وتنكشف عنها الأوهام، فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده ، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره، وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء" [١]، " فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله ، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى وتتهاوى الأسناد ، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء ... " [٢].

وبناءً على ما سبق " فإن القرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته ، لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة – أي الإلحاد – إنما القضية هي قضية توحيد الله ، وتقرير سلطانه في حياة العباد " [٣].

٣- ثم يقرر أن الفطرة ترفض وتبطل دعوى الإلحاد وإنكار وجود الله فيقول : "فمسألة "وجود " إله لم تكن قط قضية جدية من قضايا الاعتقاد في تاريخ البشرية، إنما كانت القضية الجدية دائما هي تصور حقيقة الألوهية ، وبخاصة ما يتعلق منها "بصفة التوحيد " الذي جاء به دين الله كله .. إن لوثة إنكار وجود الله أصلًا ونبذ الاعتقاد والتدين إطلاقًا ، لوثة حديثه عارضة شاذة ، ليس لها في ضمير البشرية جذور، وليس لها في الفطرة البشرية روافد ، وليس لها في الكينونة البشرية ولا في الحياة البشرية عوامل بقاء ولا امتداد ،إنها لوثة نبعت ابتداءً من تحريف النصرانية في أوربا ، حتى لم تعد تحتوي على عنصر الحق الذي تعرفه الفطرة في دين الله ، ثم بعد ذلك من الصدام الذي وقع بين الكنيسة بعقائدها المحرفة وسلوكها الشائن وبين النهضة العلمية في أوربا، وامتدت موجتها في فلسفات عصر " التنوير" ثم في المذاهب " الوضعية المادية" وفي "الداروينية" القديمة والحديثة ، كما امتدت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بعد نشأة " القوميات " في أوربا ..

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٠٤١.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٥٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٣٥ .

ثم انتهت هذه العوامل مجتمعة متداخلة متفاعلة إلى هذه اللوثة التي تبدو أعراضها في هذا الإلحاد المطلق ،الذي طنينه أكبر من حجمه ، وضجته أكبر من حقيقته، وهي لوثة طارئة عارضة، وشاذة منافية للفطرة البشرية ، ولم يكد القرن العشرين يستهل حتى بدأت موجة جديدة في أوربا ذاتها ، تبحث عن الله ، بل تواجه الله -سبحانه - في نهاية كل درب تسلكه وهي في هروبها من الله !" (١).

**ويقول :** " والملحدون هم أمساخ شائهو الفطرة ، ينكرون الفطرة ، ويعاندون ما يجدونه في أنفسهم من إلحاحها، وعندما صعد أحدهم إلى الفضاء الجوي، ورأى ذلك المشهد الباهر للأرض ككرة معلقة ، هتفت فطرته : ما الذي يمسكها هكذا في الفضاء ؟ " (٢).

" فالإلحاد تقاومه الفطرة ، والفطرة أغلب " (٣). " والفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين ، وإلى الاعتقاد بإله، بل إنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاهًا إلى إله واحد ، وإحساسًا قويًا بوجود هذا الإله الواحد ... وبالتالي كانت وظيفة العقيدة الصحيحة ليست هي إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه فهذا مركوز في الفطرة ، ولكن وظيفتها هي تصحيح تصور الإنسان لإلهه ، وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره ، تعريفه بحقيقته وصفاته ، لا تعريفه بوجوده وإثباته ثم تعريفه بمقتضيات وجود الله في حياته ، والشك في حقيقة الوجود الإلهي أو إنكاره ، هو بذاته دليل قاطع على اختلال بيِّن في الكينونة البشرية ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها ، وهذا التعطل لا يعالج - إذن - بالجدل ، وليس هذا هو طريق العلاج ، إنما يعالج باستحياء أجهزة الاستقبال واستجاشة كوامن الفطرة ، لتعود إلى حياتها وعملها " (٤).

٤- يربط سيد قطب - رحمه الله - بين الفطرة وبين العهد الإلهي أو الميثاق الأول، الذي أخذه الله تعالى على بني آدم بربوبيته تعالى لهم وإقرارهم بذلك .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٠ وما بعدها بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٦ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٣ .
(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٠٢- ٢٠٤ بتصرف .

فعند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ (١)، يقول : "وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة : إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي ، أن يعرف خالقه وأن يتجه إليه بالعبادة ، وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله ، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أندادًا أو شركاء وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم - عليه السلام - بقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (٢)، وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته " (٣).

ويوضح الارتباط بين الفطرة والميثاق أكثر في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (٤)،بقوله : "وهنا تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة ، وزاوية عميقة تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم ، وهم بعد في عالم الذر!.

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير .

إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى ، فلا حجة لهم في نقض الميثاق - حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم -

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآيات ٣٨-٣٩ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥١-٥٢ .
(٤) سورة الأعراف ، الآيات ١٧٢ - ١٧٣ .

ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل ، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (٥).

" وهنا تعرض قضية الفطرة والعقيدة في صورة مشهد – على طريقة القرآن الغالبة – وإنه لمشهد فريد ، مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق ، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ في قبضة الخالق المربي ، فيسألها ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فتعترف له – سبحانه – بالربوبية ، وتقرر له – سبحانه – بالعبودية ، وتشهد له – سبحانه – بالوحدانية ، وهي منثورة كالذر ، مجموعة في قبضة الخالق العظيم ! .

إنه مشهد كوني رائع باهر ، لا تعرف اللغة له نظيرًا في تصوراتها المأثورة ! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى ، وهي تجمع وتقبض ، وهي تخاطب خطاب العقلاء – بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع – وهي تستجيب استجابة العقلاء ، فتعترف وتقر وتشهد ، ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب ! .

وإن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتجلى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد ، وهو يتمثل الذر السابح ، وفي كل خلية حياة ، وفي كل خلية استعداد كامن، وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ، ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم ! .

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود .

عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرنًا من الزمان ، حيث لم يكن الإنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة ، فإذا " العلم " يقرر

(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩١.

أن "الناسلات " ، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص البشر وهم بعد خلايا في الأصلاب ، إن هذه "الناسلات" تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلهم ، ولا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب ، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة ، كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما - قال : " مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾، وروي مرفوعًا وموقوفًا على ابن عباس ، قال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت[2].

فأما كيف كان هذا المشهد ؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ؟ وكيف خاطبهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ﴾ وكيف أجابوا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ ؟ فالجواب عليه : أن كيفيات فعل الله – سبحانه – غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله ..إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية ، وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[3]،﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[4]، ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾[5]، ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[6]،﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[7]، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾[8]، إلى

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

(٢) رواه : أحمد ١/ ٢٧٢، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٤٤، ورجاله ثقات، وصححه الأرناؤوط في مسند أحمد، ٤/ ٢٦٧ .

(٣) سورة فصلت ،الآية ١١ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٥٤، ويونس ٣، والرعد ٢، والفرقان ٥٩، والسجدة ٤، والحديد ٤ ..

(٥) سورة الرعد الآية ٣٩ . .

(٦) سورة الزمر الآية ٦٧ .

(٧) سورة الفجر الآية ٢٢ .

(٨) سورة المجادلة الآية ٧ .

آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله . لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك الكيفية ، إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا ، والله ليس كمثله شيء ، فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله ، إذ أنه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء ما دام ليس كمثله شيء ، وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه ، هي محاولة مضللة ، لاختلاف ماهيته –سبحانه – عن ماهيات خلقه وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه، وكذلك جهل وضلٍ كل من حاول من الفلاسفة والمتكلمين – وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطًا شديدًا .

**على أن هناك تفسيرًا لهذا النص :** بأن العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ويميل بها عن فطرتها "[1].

ثم ذكر كلام ابن كثير–رحمه الله – في أن بعض السلف والخلف يرون أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، واستعرض ما ذكروه من مرجحات لهذا القول ، و قال سيد بعد ذلك : " ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ على وجهه لا على سبيل الحال لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه، وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه ، ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير ، والله أعلم أي ذلك كان .

وفي أي من الحالين يخلص لنا أن هناك عهدًا من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة ، يخرج بها كل مولود إلى الوجود فلا يميل عنها إلا أن يُفْسِد فطرته عامل خارجي عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال ، وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٣ .

ملابسات وظروف [١].

**خلاصة ما ذكره سيد في باب استدلاله بالفطرة على وجود الله وربوبيته هي:**

١- أن الإقرار بوجود الله وربوبيته ووحدانيته أمر فطري مركوز في فطرة البشر.

٢- أن الفطرة قد تنحرف بسبب عوامل عدة، لكنها تبرز عارية وقت الشدة ويظهر فيها الإقرار الفطري بربها.

٣- أن منطق الإلحاد شاذ في التاريخ والفطرة، وأن الفطرة تأباه وترفضه.

٤- أن الفطرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالميثاق الإلهي الذي أخذه الله على البشر سواء كان الميثاق بلسان الحال "الفطرة" أو بلسان المقال "الإشهاد في عالم الذر".

وهذه هو الذي عليه جمهور السلف في باب الاستدلال بالفطرة.

**الفرع الثاني: الاستدلال بالآيات الكونية:**

إن هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف، وما حواه من مخلوقات بديعة على اختلاف أنواعها، وتعدد أشكالها، وتباين أوصافها، ليشهد أن لهذا الكون خالقًا أوجده، ومدبرًا أحكم أمره وتسييره.

والمتأمل في القرآن الكريم يجده غنيًا بالآيات الكونية، وحافلًا بالدلائل القطعية الداعية إلى التفكر والتدبر، فيما هو محسوس ومشاهد في الآفاق والأنفس، حيث تشكل دلائل الآفاق والأنفس في القرآن الكريم الأساس العقلي في تقرير وجود الله ووحدانيته، وعظمته سبحانه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

---

(١) الصدر السابق ٣/ ١٣٩٣- ١٣٩٤ بتصرف.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٤) سورة الذاريات، الآيات ٢٠-٢١.

**ودلائل الآفاق والأنفس تتفرع إلى أربعة أنواع من الأدلة هي:**

١- دليل الخلق .

٢- دليل التسوية .

٣- دليل التقدير .

٤- دليل الهداية .

وقد جمعت في قوله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1]،[2] .

وهي أدلة عقلية تدركها العقول بداهة وبأدنى تأمل - تقرر وجود الله ووحدانيته.

وسأعرض في هذا الفرع دلائل الآفاق والأنفس من خلال أدلة الخلق والتسوية والتقدير والهداية، موردًا نماذج من كلام سيد حول هذه الأدلة لصعوبة إيراد كل النصوص المتعلقة بها ، ولأن الهدف هو بيان منهجه في تقرير وجود الله ووحدانيته وربوبيته من خلال آيات الله في الآفاق والأنفس.

**أولًا : دليل الخلق :**

ورد ذكر الخلق ومشتقاته في القرآن الكريم في ما يزيد عن مائتي آية [3] تتحدث عن مظاهر الخلق في الآفاق والأنفس، ويطلق الخلق في هذه الآيات على معنيين :

**الأول :** إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاء ، كخلق السموات والأرض وما فيهما .

**الثاني :** إيجاد الشيء من الشيء ، كخلق الإنسان من تراب ، ومن ماء [4].

ويعتبر دليل الخلق في القرآن من أقوى البراهين والأدلة على وجود الله ووحدانيته لذا لا غرابة أن تكون أول آية تنزل على الرسول ﷺ هي قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ

(١) سورة الأعلى ، الآيات ١-٣ .

(٢) شفاء العليل ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١، ١٤٢٤هـ، ص١٢١ .

(٣) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي .

(٤) انظر : الدلالة العقلية في القرآن ومكانها في تقرير العقيدة . د/ عبد الكريم عبيدات، دار النفائس . الأردن.ط١، ١٤٢٠،ص٢٦٩.

رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [١] ، حيث نبهت الآيات إلى مظاهر الخلق في الآفاق والأنفس.

**يقول الفخر الرازي:** " إن الله سبحانه أطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ، ثم عين خلق الإنسان فكان كل ما يُعلم حدوثه داخلًا في قوله " الذي خلق " [٢].

ودليل الخلق فطري وظاهر للعقول ، ومن ثم فالاستدلال به على وجود الله ووحدانيته متيسر لكل ذي عقل ، لا يدفعه إلا مكابر أو جاحد ،" وقد أجمع أهل الملل الدينية وسائر الفرق الإسلامية على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى واضح ، والآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وصفاته أكثر من أن تحصى ... ومن أصدق من الله قيلًا فيما هدى الناس إليه من الاعتبار بخلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وما بينهن " [٣].

**وسأكتفي ببعض النماذج من أدلة الخلق وهي :**

## أ ) أدلة الخلق في الآفاق على وجود الله ووحدانيته :

إن صفحة الكون زاخرة بالشواهد العديدة الدالة على الخلق ، بل كل مخلوق في الكون دالٌ بذاته على وجود الله ووحدانيته وقدرته كما قال أبو العتاهية [٤]:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ∴ أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة ∴ وتسكينة أبدًا شاهد
وفي كل شيء له آية ∴ تدل على أنه واحد [٥]

ومن ثم جاءت الدعوة في القرآن الكريم للعقل إلى التدبر والتفكر والتذكر ،

---

(١) سورة العلق ، الآيات ١ - ٢ .

(٢) التفسير الكبير ( المسمى: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤١١هـ ، ١٦/ ٣٢/ ١٦.

(٣) الدين الخالص، لمحمد صديق خان، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، عام ١٤٢٨هـ١/ ٣٨.

(٤) هو : إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي ، ولد قرب الكوفة سُنَّة ١٣٠هـ ، وتوفي ٢١٣هـ . شاعر معروف، كان أكثر شعره في الزهد ، وكان على مذهب الزيدية ، انظر : الأعلام ٦/ ١٦٧.

(٥) الجامع لشعب الإيمان للحافظ أبي بكر أحمد بن لاحسين البيهقي ، الدار السلفية ، الهند ، ط١، عام ١٤٠٦هـ ١/ ٣٤٣ ، ونسبها لأبي العتاهية وهي في ديوانه ص ١٢٢.

وغيرها من الألفاظ التي تدعوه إلى الوقوف على آثار قدرة الله وبديع صنعه الماثلة للعيان في السموات والأرض .

ويرى سيد أن القرآن يخاطب العقل البشري بدليل الخلق ودليل الحياة ، ممثلين في الآفاق والأنفس ، خطابًا موحيًا موقظًا للفطرة ، لا خطابًا جدليًا لاهوتيًا أو فلسفيًا ! حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء وحركة التدبير والهيمنة ، في صورة التقرير لا في صورة الجدل[1].

**ويمكن استعراض نماذج من كلامه في ظلال بعض الآيات على سبيل التمثيل كما يأتي :**

١- في ظلال قول الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]، يقول سيد : " وسواءٌ كان عقب الآية استفهامٌ أو تقريرٌ فمؤداه واحد ، فإن ما في السموات والأرض حافل بالآيات، ولكن لا يستفيد منها إلا المؤمنون ، والمخاطبون بهذا القرآن أول مرة لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السماوات والأرض إلا القليل - ولكن الحقيقية - أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية ! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون - حين تتفتح وتستيقظ - وتسمع منه الكثير!- والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ على ما في السموات والأرض، ويستلهم هذا الكون ، ويوجه النظر والسمع والقلب والعقل ، والنظر إلى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزادٍ من المشاعر والتأملات، والاستجابات والمؤثرات وسعة الشعور بالوجود والتعاطف معه ، وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية ، الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله "[3].

٢- وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]، يقول سيد: " والآيات المبثوثة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء ، ولا حال دون حال ، فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١١٥٣.
(٢) سورة يونس ، الآية ١٠١.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٢٢.
(٤) سورة الجاثية ، الآية ٣ .

العجيب .. وأي شيء ليس آية ؟ هذه السماوات بأجرامها الضخمة وأفلاكها الهائلة، .. وهذه الأرض الواسعة العريضة.. وما أودعه الله فيها من خصائص.. وكل شيء في هذه الأرض وكل حي .. آية .. وكل جزء من كل شيء ومن كل حي في هذه الأرض .. آية .. والصغير الدقيق كالضخم الكبير .. الورقة الصغيرة في الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية .. آية في شكلها وحجمها ولونها وملمسها وفي تركيبها ووظيفتها، والشعرة في جسم الحيوان أو الإنسان آية ، في خصائصها ولونها وحجمها .. والريشة في جناح الطائر .. آية .. وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره.. وكلها تشير إلى اليد الصانعة المبدعة ، التي لا يقدر على فعل شيء من ذلك أحد من خلق الله "[1].

٣- في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[2]، يقول سيد : " وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبة ، فهي قاطعة في دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد ، إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، ولا غيره من خلق الله ، ولا مفر من الاعتراف بمنشئ مدبر ، فإن ضخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواميسها الثابتة، كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلًا إلا على أساس أن هناك إلهًا أنشأها ويدبرها ، أما الفطرة فهي تتلقى منطق هذا الكون تلقيًا مباشرًا ، وتدركه وتطمئن إليه قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها ! .

وتنطوي آية السماوات والأرض على آية أخرى في ثناياها ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ والحياة في هذه الأرض وحدها - ودع عنك ما في السماوات والأرض من حيوات أخرى لا ندركها - آية أخرى "[3].

**ويستعرض - سيد - دلالة الخلق في الآفاق الكونية عند كثير من الآيات ومن النماذج أيضًا :**

١ - الليل والنهار وهما من أعجب آيات الله وبدائع صنعه ، وفيهما دلالة على

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٢ بتصرف وأيضًا ٦/ ٣٣٧٨.
(٢) سورة الشورى ، الآية ٢٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٥٨ بتصرف يسير .

ربوبية الله وحكمته [١].

٢- البحار والمحيطات، وما أودع الله فيها من عجائب مخلوقاته [٢].

٣- الرياح والمطر والسحاب والبرق [٣].

٤- الزرع والنبات والشجر [٤].

٥- الشمس والقمر [٥].

٦- الجبال والأنهار [٦].

وفيما سبق كفاية لبيان استدلال سيد بدليل الخلق في الكون على وجود الله ووحدانيته وربوبيته.

**ب - أدلة الخلق في الأنفس على وحدانية الله :**

وهذه الأدلة تمثل الجانب الثاني من آيات الله الدالة على وحدانيته، وقد ورد الحديث عنها في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقف سيد - رحمه الله - عندها كثيرًا. ومن ذلك :

في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [٧].

**يقول سيد :** " والتراب ميت ساكن، ومنه نشأ الإنسان، وفي موضع آخر في القرآن جاء : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [٨]، فالطين هو الأصل البعيد للإنسان، ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر متحركين منتشرين، للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر

---

(١) المصدر السابق ١/ ١٥٢، ٢/ ١١٥٧، ٤/ ٢٠٤٦، ٥/ ٣١٢٤، ٦/ ٣٠٣٨، ٣٠٩٣.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٥٢، ٤/ ٢١٦٣.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٥٣، ٤/ ٢٠٥٠، ٢١٦٢، ٥/ ٣١٢٥.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٠٤٦.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٠٣٢، ٢٠٤٥، ٦/ ٣٠٣٨.
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢١٦٣.
(٧) سورة الروم، الآية ٢٠.
(٨) سورة المؤمنون، الآية ١٢.

الحي المتحرك...وهذه المعجزة الخارقة من آيات القدرة ... والنقلة ضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر ، نقلة تثير التأمل في صنع الله ، وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله "[١].

٣- في ظلال قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[٢].

**يقول سيد :** " بعد أن لفت الله أنظار العباد في الآيات قبلها إلى أفاق الكون الكبير ، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد ، ويشير إلى الحياة القريبة منهم في أنفسهم .. وحين يتأمل الإنسان في نفسه – نفسه التي لم يخلقها – والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه ... يجد وحدة التصميم .. وحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها .. والإشارة إلى مراحل خلق الأجنة من النطفة إلى المضغة إلى العظام إلى الخلق الواضح في ظلمات الكيس والرحم والبطن ، ويد الله تخلق هذه الخلية الصغيرة خلقًا من بعد خلق ، وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن ، البعيدة الآماد وتأمل التغيرات والأطوار، وتدبر تلك الخصائص العجيبة التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة في تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره، هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة "[٣].

في ظلال قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[٤]. يقول سيد : " وأمر النشأة الأولى ونهايتها وأمر الخلق والموت ، أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس ، فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه ..

ودور البشر في أمر الخلق لا يزيد عن أن يودع الرجل ما يُمني في رحم المرأة ،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٣.
(٢) سورة الزمر ، الآية ٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٩-٣٠٤٠ بتصرف .
(٤) سورة الواقعة ، الآية ٥٦ –٥٨ .

ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين ، في خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، وفي كل لحظة تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله .. وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان ، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها ، ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنى، إلى أن تصير خلقًا ، قصة أغرب من الخيال ، قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلًا ويشهد وقوعها كل إنسان .

خلية واحدة ، تتكاثر إلى ملايين الخلايا، كل مجموعة منها ذات خصائص مختلفة، تنشئ كل مجموعة جانبًا في الإنسان، هذه عظام ، وتلك عضلات ، وأخرى جلد ، وهذه أعصاب ، ثم هذه خلايا لعمل عين ، وهذه لعمل لسان ، وهذه لعمل أذن وهذه لعمل غدد ، وهي أكثر تخصصًا من سابقتها وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطئ خلايا العين مثلًا فتطلع في البطن أو القدم وهكذا .. "[١].

" فخلق الإنسان عجيبة كبرى ، في تكوينه الجسماني ، والروحي ، وتوالده وتوارثه ومراحل حياته وعمل أجهزته ، فكل جزئية فيه خارقة من الخوارق الإلهية الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته وربوبيته [٢].

ولسيد وقفات كثير مع دليل الخلق في الأنفس في ظلال كثير من الآيات[٣].

## دليل الخلق ونفي والمصادفة :

إن القرآن الكريم وهو يعرض دلائل الخلق في الآفاق والأنفس – كما سبق – يقرر بطلان المصادفة في خلق الكون وما فيه ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٤]. والاستدلال بهذه الآيات على ربوبية الله ووحدانيته وبطلان المصادفة قائم على أن لكل مخلوق خالق، وأن الخالق غير المخلوق ويستحيل أن يكون الشيء هو خالقًا ومخلوقًا في نفس الوقت وبالتالي :

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٦٧- ٣٤٦٨ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٧٩ وما بعدها .

(٣) منها : سورة آل عمران الآية (٦) ، و الروم الآيات (٨ ، ٤٠ ) ، و غافر الآية (٦٧) و فصلت الآية (٥٠٣)، و الذاريات الآيات ( ٢٠ ) وسورة الملك (١ ).

(٤) سورة الطور ، الآيات ٣٥- ٣٦ .

- فالإنسان إما أن يكون خلق من غير خالق وهذا محال لتعارضه مع مبدأ السببية ، فمستحيل أن يوجد أثر بلا مؤثر .

وأما أن يكون الإنسان هو خالق نفسه وهذا محال " لأن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة - ساعة واحدة- كيف يكون خالقًا لنفسه"[١].

وإذا بطل الاحتمالان تعين أن يكون للإنسان خالقًا خلقه ، وهو الإله الحق .

**وأما ما يتعلق بالسماوات والأرض فإما :**

أن تكون خلقتا من غير شيء ، وهذا محال لتعارضه مع مبدأ السببية .

وإما أن تكونا خلقت نفسها ، وهذا محال أيضاً .

وإما أن تكون من خلق الإنسان ، وهذا محال عقلاً وواقعًا .

فإذا بطل ما سبق لم يبقى إلا أن تكون السماوات والأرض من خلق خالقٍ هو الله عز وجل[٢].

**وفي ذلك يقول سيد - رحمه الله -** : " ووجودهم - أي الناس - هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثير أو قليل.

أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدَّعيه مخلوق ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن، وهي أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ، كذلك يواجههم بوجود السماء والأرض حيالهم ، فهل هم خالقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ . وهم - ولا أي عقلٍ يحتكم إلى منطق الفطرة - لا يقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها أو خُلقت من غير خالق ، وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها ، وهي قائمة حيالهم سؤالا حيًا يتطلب جوابًا على وجوده ! " [٣].

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ٧٢.
(٢) الدلالة العقلية في القرآن ، د/ عبد الكريم عبيدات ص ٢٨٥ وما بعدها .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩- ٣٤٠٠ وينظر أيضًا ٥/ ٢٦٥٦.

ويقول أيضًا بعد أن رد على تصورات الفلاسفة ومقولاتهم في قضية خلق الوجود: " إن المادة من خلق الله سبحانه ، والصورة التي تظهر فيها من خلق الله كذلك ، وهذه كتلك طوع إرادته ، يتحقق وجودها بقدره كما أرادها وشاءها ...

وخلق كل شيء وكل حي عن إرادة وقصد ، وتحقق خلقه ووجوده بقدر من الله خاص ، فلا مكان للمصادفة العمياء في هذا الكون ، كما أنه لا مكان للحتمية الآلية على السواء .

لا مكان للمصادفة لأن كل حادث يحدث إنما يتم بقدر من الله خاص ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]، ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] وغيرها . وتسقط بذلك كل المقولات " الفلسفية " أو " العلمية " التي تزعم مثلا أن الأرض وجدت مصادفة ، وأن الحياة وجدت مصادفة ، .. وكذلك تسقط كل التصورات التي تنسب الآثار للمصادفات في حياة البشر "[3].

## ثانيًا : دليل التسوية :

ويقصد بالتسوية إحسان الخلق ، وإكمال الصنعة ، بحيث يكون المخلوق مهيئًا لأداء وظيفته وبلوغ كماله المقدر له ، وجعله مستويًا معتدلًا متناسب الأجزاء ، بحيث لا يحصل تفاوت يخل بالمقصود منه[4].

**وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتضمن دليل التسوية في الآفاق وفي الأنفس ومظاهرها:**

### أ) أما مظاهر التسوية في الآفاق :

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾[5] ، يقول سيد-رحمه الله -: " .. اللهم إن هذا هو الحق الذي تراه

---

(١) سورة القمر ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة الحديد ، الآية ٢٢ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٥٦- ٢٥٧ بتصرف يسير .
(٤) الدلالة العقلية في القرآن ، د/ عبد الكريم عبيدات ص ٢٩٠.
(٥) سورة السجدة ، الآية ٧ .

الفطرة ، وتراه العين ، ويراه القلب ، ويراه العقل الحق المتمثل في أشكال الأشياء ، ووظائفها، وفي طبيعتها منفردة ، وفي تناسقها مجتمعة وفي هيئاتها أحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد، سبحانه ! هذه صنعته في كل شيء ، هذه يده ظاهرة الآثار في الخلائق .. يتجلى في كل شيء الإحسان والإتقان، فلا تجاوز ولا قصور ، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط في حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة ،.. كل شيء وكل خلق مصنوع ليؤدي دوره في الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعدادًا دقيقًا مزودًا بالاستعدادات والخصائص التي تؤهله لذلك .. إن هذا الوجود جميل ، وإن جماله لا ينفذ ، والجمال مقصود فيه [1].

**وقد وقف سيد - رحمه الله - عند كثير من مظاهر التسوية في الآفاق مستدلًا بها ومنها :**

**١ - السماء :** ففي ظلال قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [2].

يقول -سيد- " والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله ، في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة ..، وهو يتحدى بكماله كمالًا يرد البصر عاجزًا كليلًا مبهورًا مدهوشًا .. فليس في خلق الرحمن - خلل ولا نقص ولا اضطراب ..وأسلوب التحدي يثير الاهتمام والجد في النظر ليذهب عنه بلادة الإلف ..

والجمال في تصميم الكون مقصود كالكمال ، بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة، فالكمال يبلغ درجة الجمال ، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجهه إلى كمالها ، فمشهد النجوم في السماء جميل جمالًا يأخذ بالقلوب ، وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ، ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، وكله جمال ، يأخذ بالألباب .. والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء والكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود ، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٠٨ - ٢٨٠٩ بتصرف ، وينظر أيضًا ٥/ ٢٦٦٩.
(٢) سورة الملك ، الآيات ٣- ٤ .

لأنه حينئذٍ يتهيأ فيها للحياة الخالدة .. وإن أسعد لحظات القلب البشري هي التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه "[١].

وفي ظلال قوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾[٢]، يقول : " وسمك كل شيء قامته وارتفاعه ، والسماء مرفوعة في تناسق وتماسك وهذه هي التسوية ، والنظرة المجردة ، والملاحظة العادية ، تشهد بهذا التناسق المطلق ، والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك هذه الحقيقة الهائلة التي لم يدرك الناس بعلومهم إلا طرفًا منها وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مطلقة ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقًا !![٣].

٢- الأرض : يقول سيد- رحمه الله - في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾[٤]: " ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة صالحة للإنبات ، وإرساء الجبال وإخراج الماء والنبات لتعيش الأحياء فيها وتستقر "[٥].

**والخلاصة** : أن كل شيء في الوجود مسوىً في صنعته ، كامل في خلقته ، معد لأداء وظيفته ، وهو دال على وجود الله وربوبيته .

### ب ) مظاهر التسوية في الأنفس :

وتبدو جلية في كل عضو من أعضاء الإنسان ، فقد أحسن الله خلقه ، كما قال سبحانه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[٦]، وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾[٧].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٣- ٣٦٣٤ بتصرف .
(٢) سورة النازعات الآيات ٢٧- ٢٨.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٦ وأيضًا ٤/ ٢١٣٢- ٢١٣١ .
(٤) سورة النازعات ، الآيات ٣٠-٣٢ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٦- ٣٨١٧ بتصرف ، وأيضًا ٤/ ٢١٣٣- ٢١٣٤ .
(٦) سورة التين ، الآية ٢ .
(٧) سورة الانفطار ، الآيتان ٧- ٨.

**يقول سيد :** " إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة أمر يستحق التدبر الطويل والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ... الذي اختار له هذه الصورة السوية.. إذ الإنسان مخلوق جميل التكوين ، سوي الخلقة معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله ، وإن هذا الجمال والسواء والاعتدال ، لتبدو في تكوينه الجسدي ، وفي تكوينه العقلي ، وفي تكوينه الروحي سواء ، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء " .. ثم يستشهد على ذلك بما ذكره العلماء من عظمة خلق الإنسان والأجهزة التي عنده ، في كمالها وتناسقها وجمالها ، كل واحد منها عجيبة ، لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشًا أمامها " [١].

ولو ذهبنا نتأمل مظاهر التسوية في الإنسان لأصابنا التعب كما أصابنا من التأمل في الوجود من حولنا ، وكلها دليل على عظمة الله ووحدانيته وقدرته وربوبيته .

**ثالثًا : دليل التقدير :**

يقصد بالتقدير : جعل الأشياء على مقدار مخصوص بدون زيادة أو نقصان ، حسبما اقتضت الحكمة الإلهية [٢]، بحيث لو افترضنا خلاف ذلك تطرق الفساد إلى كل مخلوق .

**والتقدير في مخلوقات الله على ضربين :**

١ - ضرب أوجده بالفعل ، بأن أوجده كاملًا دفعة لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء الله أن يفنيه أو يبدِّله ، كالسماوات وما فيها .

٢ - ضرب جعل أصوله موجودة بالفعل ، وأجزاءه بالقوة ، وقدَّره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدرَّه فيه ، كتقديره في النواة أن ينبت منها النخيل دون التفاح ، وتقدير منيِّ الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٩ وما بعدها بتصرف ، وينظر أيضًا ٤/ ٢٤٥٩ وما بعدها .
(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٩٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ .

**وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم التقدير في عدة مواضع يمكن الإشارة إلى أمثلة منها في مجالي الكون والإنسان :**

## أ ـ مظاهر التقدير في الكون :

ظاهرة التقدير تبدو في كل ما خلق الله -عز وجل- في الأرض وفي السماء ، فقد نظَّم الله أجزاء هذا الوجود على أحسن نظام وأدلّة على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وحكمته ولطفه [١].

ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾[٢]. حيث وقف سيد طويلًا في ظلال هذه الآية قائلًا : " كل شيء .. كل صغير وكل كبير كل ناطق ، وكل صامت ، كل متحرك وكل ساكن ، كل ماضٍ وكل حاضر ، كل معلوم وكل مجهول ، كل شيء خلقناه بقدر.

قدر يحدد حقيقته .. ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء ، وتأثيره في كيان هذا الوجود .

إن هذا النص القرآني القصير اليسير ، ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله ، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقًا دقيقًا ، كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود.

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل ويطيقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق ، ووراء هذا القدر يبقى دائمًا ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة ، وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

---

(١) مفتاح دار السعاة لابن القيم، دار ابن عفان، الرياض، ط١، عام ١٤١٦هـ، ٢/ ٣١، وما بعدها، وشفاء العليل لابن القيم، ص١٢٢.

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٣ .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له ، ووصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ، لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها ، فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها ، ثم يتحقق هذا الذي فرضوه ، ويدل تحققه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام ، في هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة التي لا يتناولها خلل أو اضطراب ! .

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدرها الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أي نسبة من نسبها يودي بهذه الحياة كلها ، أولا يسمح أصلًا بقيامها ، فحجم الأرض وكتلتها وبعدها عن الشمس ، وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها – وميل الأرض على محورها بهذا القدر وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس ، وبعد القمر عن الأرض ، وحجمه وكتلته ، وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض ،.. إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديرًا ، لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء ولكانت هذه النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض ! .

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ، وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ، وبين بعضها البعض .. إلى حد يعطي فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية .

فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء ، وعوامل الموت والفناء ، في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائمًا بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها ، وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء في وقت ما لإعالتهم وإعاشتهم ! " [1].

كما أشار سيد- رحمه الله- إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء لبعض وفي تناسق بناء الكون وفي ظروف الأرض، ناقلًا عن علماء الأحياء والطبيعة والفلك كثيرًا من مظاهر التناسق والتقدير في أجزاء الكون، وما فيه من

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٦- ٣٤٣٧.

أحياء وأشياء [١]، ويخلص إلى : " أن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه لما يدعو إلى الدهشة حقًا، وينفي فكرة المصادفة نفيًا باتًا، ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير، وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته، اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ " [٢].

## ب – مظاهر التقدير في الأنفس :

مظاهر التقدير في الإنسان تبدو في كل عضو من أعضائه ، وكل خلية من خلاياه ، وكل جهاز من أجهزة جسده ، وقد نبه العلماء قديمًا وحديثًا على مظاهر التقدير في خلق الإنسان [٣].

وقد ذكر سيد – رحمه الله – أمثلة من التقدير الإلهي في خلق الإنسان ، وأشار إلى عجائب من كمال التكوين الإنساني ودقته وإحكامه ، ويظهر ذلك في الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي ، الجهاز العظمى ، والعضلي ، والجلدي، والهضمي، والدموي ، والتنفسي ، والتناسلي واللمفاوي ، والعصبي والبولي ، وأجهزة الذوق، والشم، والسمع، والبصر، كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشًا أمامها ، وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس "[٤].

ثم نقل معلومات عن بعض الكتب العلمية تبين تقدير الله في عمل بعض أجهزة الإنسان وأعضائه كاليد والعين واللسان والأعصاب والمعدة وأجهزة الهضم والعقل والمخ ، وغيرها ، مستدلًا بذلك على وجود الله وقدرته وعظمته وحكمته [٥].

---

(١) ينظر في ذلك: المصدر السابق ٤/ ٢١٣٤ ، ٥/ ٢٥٤٨-٢٥٥٠، ٢٩٦٨ ، ٦/ ٣٤٣٧- ٣٤٤١ ،.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٤٨ .

(٣) ينظر في ذلك : الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبر للجاحظ ص ٤١وما بعدها، و الحكمة في مخلوقات الله للغزالي ص٦١ وما بعدها ، و العلم يدعوا للإيمان ، لكريسي موريسون ص ١٦٢ وما بعدها.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٨.

(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٨٤٨- ٣٨٥٠.

**رابعًا : دليل الهداية :**

يقصد بالهداية : إعطاء كل مخلوق من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، وإرشاده إلى ما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه [١]، وكما أن التسوية من تمام الخلق ، فإن الهداية من تمام التقدير ، وإذا كان الخلق هو إعطاء الوجود العيني الخارجي للمخلوقات ، فإن الهداية إرشاد هذه المخلوقات ودلالتها لما خلقت له ، مما يحفظ بقاءها ويقيها في حياتها[٢].

والذي يظهر أن الهداية تختص بكل ما فيه روح ، لأن الإلهام الفطري، الذي أودعه الله المخلوقات يستلزم ممارسةً عمليةً من طعام وشراب ودفاع عن النفس وغير ذلك مما يُصلح المخلوق في معيشته، ويؤيد هذا ما ذكره ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[٣]،حيث قال : "والآية شاملة لهداية الحيوان كله، ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه وأعجمه " [٤].

وأكثر ما ينبه العلماء على مظاهر الهداية في عالم الحيوان لأن الدلالة فيها أعظم ، وقد وقف سيد قطب عند هذه الدلالة ، وأشار إليها في مواضع متعددة .

**يقول سيد- رحمه الله - في ظلال الآية السابقة:** " ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها ، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها ، " وثم " هنا ليست للتراخي الزمني ، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها ، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته ، إنما التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته ، فهداية كل شيء إلى وظيفته أعلى مرتبة من خلقه غفلا [٥].. وهذا الوصف يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود ، هبة الوجود - وهبة خلقه على الصورة التي خلق عليها - وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها ، وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته في جنبات

(١) شفاء العليل لابن القيم ، ١٢٢ بتصرف.
(٢) شفاء العليل لابن القيم ٦٦ ، ٧٩ .
(٣) سورة طه ، الآية ٥٠ .
(٤) شفاء العليل لابن القيم، ص٦٦ .
(٥) الغفل : الذي لم يجرب الأمور، انظر: لسان العرب، ١٠/ ٩٦، وشفاء العليل لابن القيم ص١٦٨.

هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير"(١). ويذكر سيد نماذج لهداية المخلوقات لا يسع المجال لعرضها (٢).

وهكذا رأينا أن سيدًا – رحمه الله – ركز كثيرًا على الآيات الكونية في الآفاق والأنفس في مجال الخلق والتسوية والتقدير والهداية ، وأشار إلى أنها من أدَّل الدلائل على وجود الخالق سبحانه ووحدانيته وإتقان صنعه وعجيب تدبيره ، ولطيف حكمته ، والتأمل فيها يملأ القلوب بالإيمان بالله ، واستشعار قدرته ، ولتكون ثمرة هذا التأمل والنظر عبودية خالصة لله قائمة على براهين وحجج تشهد بها آياته في الآفاق والأنفس(٣).

**الفرع الثالث : الاستدلال بالأدلة العقلية " انتظام الكون وعدم فساده " :**

**من الأدلة على وجود الله وربوبيته أيضًا :** الأدلة العقلية ، وهي نوع من الأدلة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، والتي تقوم على ضرب الأمثلة والمقاييس العقلية المفيدة بناءً على المقدمات المعلومة بخلاف طريقة أهل الكلام في هذا الباب (٤).

ومن هذه الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله وربوبيته : " دليل انتظام الكون وعدم تطرق الفساد إليه ".

يقول ابن القيم– رحمه الله– : " وانتظام أمر العالم : العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض ، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، أدل دليل على أن مدبِّره واحد، لا إله غيره " (٥).

**وقد نبه القرآن على ذلك في مواضع منها :**

١– في ظلال قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٦)،يقول سيد: " وهذا الدليل الكوني مستمدٌّ من واقع

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٣٨ بتصرف يسير .
(٢) ينظر على سبيل المثال :في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٣٧– ٣٤٤٠.
(٣) ينظر: مقومات التصور الإسلامي ، ص ٣٢٣ – ٣٥٩ .
(٤) ينظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٨ .
(٥) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق، د.علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣ عام ١٤١٨هـ ،٢/ ٤٦٤.
(٦) سورة الأنبياء، الآية٢٢.

الوجود .. فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا ، وينسق بينها وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم ، هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد ، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ، ولتعددت النواميس تبعًا لها - فالإرادة مظهر الذات المريدة ، والناموس مظهر الإرادة النافذة - ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ، ولوقع الاضطراب والفساد تبعًا لفقدان التناسق ، هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق ، الذي لا فساد في تكوينه ، ولا خلل في سيره ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١).

وكلام سيد هنا موافق لما ذكره علماء أهل السُّنَّة والجماعة (٢) من الاستدلال بوحدة الكون وتناسقه على وجود الله ووحدانيته وربوبيته ، لأنه لو كان هناك إله مع الله لكان له إرادة وخلق ، وبالتالي تتعدد الإرادات والنواميس التي تظهر فيها تلك الإرادات ، وعندئذ يحصل الخلاف والتضارب والتصادم بين هذه النواميس والإرادات فيفسد الكون ، فانعدام ذلك وصلاح الكون وانتظام أمره دليل على وجود إله واحد في هذا الكون .

٢- في ظلال قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٣)، يوضح سيد - رحمه الله - أن الله- سبحانه - يستدل على وحدانيته وربوبيته في هذه الآية بأنه لو كان مع الله إله آخر ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾، أي : يستقل بما خلقه ، يصرفه حسب ناموس خاص ، فيصبح لكل جزء من الكون ، أو فريق

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٣٧٣ .
(٢) ينظر كلامهم في: منهاج السُّنَّة لابن تيمية ٣/ ٣٠٦ وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٥٤ وما بعدها ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨ . وتفسير الطبري ٩/ ١٥ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع ،﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره ، وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقًا مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب فـ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١).

**ووجه الاستدلال في هذه الآية على وجود الله ووحدانيته :**

- أن وجود العالم دليل على وجود خالق له .

- وأن هذا الخالق لو كان معه إله آخر لكان لكل منهما نصيب فيه .

- ولو كان لكلٍ منهما نصيب لكان كل منهما محتاج إلى الآخر وبالتالي لا يكون كل منهما إلهًا مستقلًا كاملًا .

وعند ذلك سيحاول كل منهما مغالبة الآخر والانفراد ، وعندئذٍ سيعتزل كل إله بما خلق من أشياء وينفرد بها ، وبذلك يفسد أمر الكون والمخلوقات ، ولما كان أمر الكون منتظمًا لا خلل فيه ولا اضطراب ولا فساد كان ذلك دليلًا على وحدانية الله ووجوده وتفرده بالخلق والتدبير (٢).

٣- قوله تعالى:﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(٣)، ويسمى هذا الدليل بدليل " السبر والتقسيم " فالسبر : اختبار الفروض للتعرف على الفاسد منها والصحيح، والتقسيم : الحصر لها بحيث لا يبقى مزيدٌ قطعًا أو ظنًا، والفروض الممكنة هنا ثلاثة :

**الأول : أن يكونوا خلقوا من العدم** : وهو ممتنع ضرورة ، إذ العدم نقيض الوجود ،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٨ بتصرف يسير .
(٢) ينظر كلام العلماء في ذلك في : منهاج السُّنَّة لابن تيمية ٣ / ٣٢٣ ، وتفسير الطبري ٩/ ٢٤٠ .
(٣) سورة الطور ، الآيتان ٣٥- ٣٦ .

فلا يكون العدم سببًا للوجود .

**الثاني : أن يكونوا هم الخالقين :** وهو مبني على الجمع بين النقيضين ، إذ هو مبني على فرض وجودهم في حال عدمهم وهو ممتنع ضرورة إذ العدم نقيض الوجود .

**الثالث : أن يكون الخالق غيرهم :** وهو الله سبحان وتعالى وهو المطلوب إثباته[١].

يقول سيد - رحمه الله - : " ووجودهم - أي الناس - هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل ، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدَّعيه مخلوق .

وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن وهي : أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء " [٢].

**والخلاصة :** أن دليل انتظام الكون وعدم فساده دليل عقلي قوي على وحدانية الله ووجوده وربوبيته، لا تملك العقول إلا التسليم به .

**الفرع الرابع : الاستدلال بالمعجزات وخوارق العادات:**

الاستدلال بالمعجزات على وجود الله ووحدانيته وربوبيته أمر متفق عليه بين أهل السُّنَّة والجماعة والمتكلمين، وذلك بالاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة على إثبات وجود الله تعالى وربوبيته . حيث يستدل بها على إثبات صدق النبوة ، وإذا ثبت صدق النبي أو الرسول وجب تصديقه فيما أخبر به ، وأهم ذلك وجود الخالق ووحدانيته وربوبيته .

وأيضًا فالمعجزة بذاتها أمر خارق للعادة فهي أخص في دلالتها من الحوادث المعتادة [٣].

فالاستدل بالمعجزات من الطرق الشرعية السليمة التي أشار إليها القرآن الكريم .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د.ت، ص١٧، والمدخل لدراسة العقيدة، د. إبراهيم البريكان، دار ابن عفان، الرياض، ط٥، عام ١٤١٨هـ، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩- ٣٤٠٠ ، وكذلك ٥/ ٢٦٥٦ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ،١١/ ٣٧٨-٣٧٩ .

وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى هذا الدليل ، أثناء حديثه عن قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون الذي أنكر ربوبية الله بقوله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فعرض عليه موسى عليه السلام معجزة واضحة تدل على صدق ما أدعاه من وجود الله الذي أرسله إلى فرعون وقومه ليؤمنوا به ، لأنه هو وحده القادر على كل شيء ، إذ دلت المعجزة على وجوده وكمال قدرته على جميع خلقه بمن فيهم فرعون الذي تكبر وادعى الربوبية والألوهية حتى بعد مشاهدته المعجزة استكبارًا وعنادًا.

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

**يقول سيد - رحمه الله - :** " إنه – أي فرعون قبحه الله – يسأل : أيُّ شيءٍ يكون رب العالمين الذي تقول : إنك من عنده رسول ؟ سؤال المتنكر للقول من أساسه ، والمستغرب للمسألة حتى ليراها غير ممكنة التصور .

فيجيبه موسى عليه السلام – بالصفة المشتملة على ربوبيته – تعالى– للكون المنظور كله وما فيه ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾،وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه–إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك– يا فرعون ولا علمك ... وفيه توجيه نظره إلى الكون والتفكير فيمن يكون ربه .

ثم بعد استغراب فرعون لجواب موسى وتعجيبه لقومه منه ، يهجم عليه موسى بصفة أخرى ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾وهي أشد مساسًا بفرعون

(١) سورة الشعراء ، الآيات / ٢٣ – ٣٣ .

ودعواه وأوضاعه .. لذا نجده " يتهم موسى بالجنون حتى يبعد القلوب عن التأثر بكلامه وتصديقه – شأن الطغاة – ولكن هذا التهكم والاتهام لا يفت في عضد موسى –عليه السلام– فيمضي معرفًا بربه بقوله :﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، حيث يلفت الأنظار إلى هذين الحدثين العظيمين وهما يتكرران كل يوم– الشروق والغروب– حيث لا يجرؤ فرعون ولا غيره أن يدعي تصريفهما ،فمن يصرفهما إذن؟ سؤال هز العقول[1]، وهنا خشي فرعون من يقظة القلوب فأخذ يهدد بالبطش والسجن ، وهي حجة الطغاة وعلامة العجز أمام دلائل الحق ، وكأن فرعون أراد إغلاق صفحة الحوار ، فإذا بموسى يفتحها من جديد ببرهان جديد : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾، أي ببرهان واضح على صدق رسالتي ! وفي هذا إحراج لفرعون، فلو رفض الإصغاء لبرهانه المبين لدل على خوفه ، لذا قال : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ في أن لديك شيئًا مبينًا.

هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين ، وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل لحظة ، ولكن الناس لا يلقون لها بالًا لطول الألفة والتكرار ، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي ، فأما في مثل هذا المشهد فالأمر يزلزل ويرهب " [2].

وما ذكره سيد هنا هو نفسه ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول بعد سوقه للآيات سالفة الذكر : " فهنا قد عرض عليه موسى – عليه السلام – الحجة البينة ، التي جعلها دليلًا على صدقه في كونه رسول رب العالمين ، وفي أن له إلهًا غير فرعون يتخذه ... فبيَّن أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ، وذلك لأن المعجزة – التي هي فعلٌ خارقٌ للعادة – تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث ، بل هي أخص من الحوادث المعتادة في الدلالة ، ولهذا يسبح الرب عندها ويعظم ... وتدل بظهورها على الرسول ، وإذا تبين أنه رسول تقرر بها الربوبية والرسالة "[3].

---

(١) وهذه وما قبلها من الدلائل الكونية على وجود الله وحدانيته كما سبق بيانه في الفرع الثاني من هذا المبحث .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٢ – ٢٥٩٤ بتصرف .

(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٧٨ بتصرف ، وينظر كلام العلماء في ذلك في : الاعتقاد والهداية للإمام البيهقي ص ١٠،

## المبحث الثاني

# موقف سيد قطب من القول بـ " قدم العالم "

القول بقدم العالم مشهور عن بعض الفلاسفة ، وأول من قال به منهم هو "أرسطو" وتبعه ابن سيناء وغيره ، حيث اتفقوا على عدم الحدوث الزماني ، بمعنى أن يكون لوجود العالم بدء زماني مسبوق بزمن سابق وعدم مستمر، فصورة العالم ومادته عند هؤلاء الفلاسفة قديمة أزلية، وإن لم تظهر إلا بعد فترة من الزمان [1].

أي أن العالم كان في حالة " ممكن الوجود " ثم تحرك بشوق منه نحو " واجب الوجود " – وهو الله – فانتقل من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود .

وقد ناقش سيد – رحمه الله – مسألة " قدم العالم " عند الفلاسفة ، وبين فسادها، وأكتفي هنا بنقل نص واحد حول المسألة لتعذر نقل كل ما يتعلق بالموضوع :

يقول – رحمه الله –: " والله سبحانه خلق هذا الكون مريدًا أن يخلقه على الصورة التي أنشأه عيها وليس الأمر كما يقول أرسطو : إن الله لم يرد إيجاد هذا الكون ، لأنه مستغن بذاته ، فلا حاجة به إلى خلق ما لا حاجه به إلى خلقه ، لأن خلقه لا يزيد في كماله ، وإلا لكان كمال الله ناقصًا قبل خلق الكون كما أنه إذا لم يكن خلقه يكمل هذا الكمال فإن يكون عبثًا ! وإنما هذا الكون كان ممكن الوجود ، فتحرك بشوق منه نحو واجب الوجود – وهو الله – فانتقل من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود ! .

إن هذا الذي يقوله أرسطو – أكبر الفلاسفة – ليس إلا تصورات ذهن بشري لا يرتكن إلى أي أساس صحيح ، وهو يقيس الله – سبحانه – وتصرفه إلى البشر وتصرفاتهم، وخلق الله للكون لا يقتضي حتمًا أن يكون لنقص في كماله سبحانه ، حتى ينفيه عنه أرسطو ، كما أنه لا يمكن أن يكون عبثًا إنما الله هو الذي يقدر حكمة خلقه .

**كما أنه يقال لأرسطو :** إذا كان هذا الكون – قبل وجوده بالفعل – ليس موجودًا، فكيف تحرك من مرتبة إمكان الوجود إلى مرتبة الوجود الفعلي؟ ما الذي تحرك فيه

---

والصواعق المرسلة لابن القيم ٣/ ١١٩٦.

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨ / ٢٨٦ .

وهو ليس بشيء ؟ وهذا الشوق الذي حركه نحو واجب الوجود أين كان مقره في شيء لا وجود له ؟ ثم من الذي أودع شوقًا في شيء لا وجود له ؟ إنها تصورات واهنة يعجب الإنسان كيف تصدر عن ذهن أكبر الفلاسفة لو لا أن يتذكر أن الذهن البشري حين يقحم نفسه في غير مجاله على نحو ما تصنع الفلسفة بجملتها ، وهي تتحدث عن ذات الله وصفاته وأفعاله من عند نفسها ، لا يمكن أن يأتي بغير هذه التصورات الواهنة ! "[١].

كما أن قولهم بأن الحياة حالة أو خاصية ملازمة لمادة الكون أو كامنة فيها بطبيعتها ، زعم بغير دليل يقبله العقل ، إذ كيف يمكن لخاصية في مادة الكون أن تظل كامنة ما لا يحصى من ملايين السنين - على اعتبار أن الكون قديم موجود بذاته كما يقولون - فلا تتحرك لتظهر إلا منذ كذا مليون سُنَّة فيما يقدرون ؟ دون أن تكون هناك إرادة قاصدة في كمونها أو في ظهورها ؟ إن العقل البشري بمنطقه الذاتي يرفض هذا التصور "[٢].

وبعد أن استعرض سيد قطب عددًا من النصوص القرآنية الدالة على أن الله خلق الكون وما فيه بعد أن لم يكن وأنه أوجد جميع المخلوقات من عدم ، قال - رحمه الله - : " إن الله سبحانه - كما تقرر هذه النصوص - خلق الكون وما فيه ومن فيه ، خلقه خلقًا ، وأنشأه إنشاءً - سواءً في ذلك مادته أو صورته "[٣].

**ومما سبق نجد :** أن سيدًا - رحمه الله - يرفض فكرة " قدم العالم " سواءً في صورته أو مادته كما يقول الفلاسفة ، ويقرر بأن العالم حادثٌ مخلوقٌ بعد أن لم يكن ، ويجعل من حدوث العالم وخلقه دليلا على وجود الخالق سبحانه كما سبق عند الحديث عن الاستدلال بالخلق على الربوبية .

(١) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٢٥٢ .
(٢) مقومات التصور الاسلامي، ص ٢٥٢ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥١.

# المبحث الثالث

# موقفه من وحدة الوجود

من أبرز القضايا التي أثيرت حول عقيدة سيد قطب - رحمه الله - قضية اتهامه بالقول "بوحدة الوجود" وفي هذا المبحث نعرض لهذه القضية من خلال المطالب الآتية :

**المطلب الأول : معنى وحدة الوجود عند القائلين بها .**

**المطلب الثاني : سبب اتهام سيد قطب بالقول بوحدة الوجود ومناقشته .**

**المطلب الثالث : سيد قطب ونقض وحدة الوجود .**

obeikandl.com

## المطلب الأول

## معنى " وحدة الوجود " عند القائلين بها

**وحدة الوجود :** مذهب فلسفي لا ديني ، يقول بأن الله والطبيعة والكون حقيقة واحدة ، وأن الله هو الوجود المطلق، ويقوم هذا الاعتقاد على أن العالم بما فيه إنما هو التجلي الإلهي الدائم الذي كان ولا يزال ، فالموجود واحد هو الله ، وهو عين المخلوقات، فكل شيء هو الله واختلاف الموجودات هو اختلاف في الصور والصفات مع توحد الذات" [١].

ويوضح ابن القيم – رحمه الله – هذه العقيدة بقوله: " وقول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة وجود هذا العالم – فليس عند القوم رب وعبد ، ولا ملك ومملوك ، ولا راحم ومرحوم ، ولا عابد ومعبود ... بل الرب هو نفس العبد وحقيقته ، والمالك هو عين المملوك ، والراحم هو عين المرحوم ، والعابد هو نفس المعبود ، وإنما التغاير أمر اعتباري بحسب مظاهر الذات وتجلياتها [٢].

وهذه العقيدة وجدت عند بعض غلاة الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، ولها وجود أيضًا اليوم في بعض الاتجاهات الغربية كالوجودية وغيرها ، وكلها متفقة على أنه ليس الوجود إلا الله ، وما في الكون من ظواهر فإنما هي مظاهر لحقيقة واحدة، هي الحقيقة الإلهية– تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا – [٣].

---

(١) الموسوعة الميسرة ، ٢/ ٧٩٣.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ، ١/ ٦٠– ٦١ .

(٣) ينظر كلام أصحاب وحدة الوجود في :

١– فصوص الحكم لابن عربي ، تحقيق د / أبي العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ب ،ت ، ص ٩٧ ، ١١٣، ٢١٧ ، ٤٤٠ .

٢– جواهر المعاني في فيض أبي العباس التيجاني ، لعلي بن حرازم الفارسي ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة عام ١٤٠٨هـ ١/ ١٤٨٣ .

٣– الإنسان الكامل ، لعبد الكريم الجيلي ، مطبعة الحلبي ، مصر ، ط ٤ ، ب . ت ، ١/ ٢٣ .

٤– الموسوعة الميسرة ، ٢ / ٧٩٤ ، وما بعدها .

## المطلب الثاني

## سبب اتهام سيد قطب بالقول بوحدة الوجود

عند النظر في كلام الذين نسبوا القول بوحدة الوجود إلى سيد - رحمه الله - نجد أنهم اعتمدوا في ذلك على أمرين :

**الأمر الأول :** نصوص شعرية ونثرية - لسيد قطب - رحمه الله - في كتابين أدبيين له في فترة ضياعه وانحرافه الفكري هما : " ديوان الشاطئ المجهول " ، وقصة "سندباد عصري" [١].

**الأمر الثاني :** كلام أدبي موهم في تفسير سورتي الحديد والإخلاص [٢]، وهذان الأمران هما اللذان اعتمد عليهما د/ ربيع المدخلي حيث يقول تحت عنوان: " أطوار سيد قطب في وحدة الوجود " :

**أولا :** نعق بها وهو في سن الكهولة في حدود عام ( ١٩٥٣م - ١٣٥٥هـ ) في ديوانه الشعري في قصيدته إلى الشاطئ المجهول .. ثم ذكر المدخلي ستة أبيات حول الموضوع ، وأتبعها بشرح لها من مقدمة سيد لديوانه المذكور ، واستعرض مجموعة أبيات أخرى من الديوان .

**ثانيًا :** وفي شيخوخته في حدود سُنَّة ١٩٤٦م - تحمس للدفاع عن عقيدة النيرفانا[٣]، فمدحها وذب عنها وعن أهلها وهي تتضمن عقائد وثنية مثل وحدة الوجود والتناسخ ،...

ثم استشهد ببعض نصوص من كلام سيد في نقده لكتاب "سندباد عصري" [٤]،

---

(١) ينظر في ذلك كلام د/ ربيع المدخلي في كتابه : الحد الفاصل : ص٦٥ وما بعدها .

(٢) ينظر : المصدر السابق ص ٧٢ ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب، د/ ربيع المدخلي ص١٥٠ وما بعدها، والمورد الزلال ، للدويش ، ص ٣١٢.

(٣) عقيدة النيرفانا تعني : نجاة الروح وصلاحها بعد دورة التناسخ، حيث لم تعد في حاجة إلى تناسخ جديد، فتنجو من الجولان وتتحد بالخالق الذي صدرت عنه وتفنى، وهي أسمى أهداف الحياة عند الهندوس والبوذيين، الموسوعة الميسرة. ٢/ ١١٧٠-١١٧١.

(٤) هو كتاب للدكتور / حسين فوزي.

على أن سيدًا يمدح النيرفانا وأهلها .

**ثالثًا :** في حدود سُنَّة ١٩٥١م تظاهر سيد بنفي القول بوحدة الوجود في أول تفسير سورة البقرة بأسلوب بارد !!. .

**رابعًا :** في نهاية الخمسينات عاد سيد إلى تقرير عقيدة وحدة الوجود والقول بالحلول والجبر ( !!!) في تفسيره سورتي الحديد والإخلاص "[١].

أما كلام سيد في تفسير سورتي الحديد والاخلاص فقد اعتمد عليه الشيخ الألباني - رحمه الله -وغيره في نسبة القول بالحلول والاتحاد إلى سيد ، حيث يقول في لقاء لمجلة المجتمع الكويتية معه عن عبارات سيد قطب في تفسير سورتي الحديد والإخلاص : " ظاهر كلامه " أنه لا وجود إلا وجود الحق وهذا هو عين قول القائلين بوحدة الوجود .. كل ما تراه بعينك فهو الله ، وهذه المخلوقات التي يسميها أهل الظاهر مخلوقات ليست شيئًا غير الله ... وعلى هذا تأتي بعض الروايات التي تفصل هذه الضلالات الكبرى ، بما يرى من بعض الصوفيين القدماء من كان يقول : "سبحاني ما أعظم شأني " وآخر يقول " ما الجبة إلا الله " وهذا الكلام كله في هذين الموطنين من التفسير "[٢].

وحتى نعرف حقيقة الأمر لا بد من الوقوف عند السببين السابقين لنرى مدى دلالتهما على ثبوت التهمة من عدمها وذلك من خلال الفرعين الآتيين :

**الفرع الأول :مناقشة السبب الأول: " الاعتماد على كلام سيد في كتبه السابقة لإلتزامه" :**

سبق الحديث عن مرحلة " الضياع والانحراف الفكري" التي مر بها سيد قطب والتي استمرت قرابة خمسة عشر عامًا من حياته، وألف فيها مجموعة من الكتب الأدبية المتنوعة شعرًا ونثرًا ، ومنها ديوانه المعروف باسم " الشاطئ المجهول " وقصة " سندباد عصري " ، و عنهما نقل الدكتور/ ربيع المدخلي الأبيات والكلام الذي استشهد به على أن سيدًا يقول بوحدة الوجود .

---

(١) انظر : الحد الفاصل ، د/ ربيع المدخلي ص ٦٥- ٧٣ بتصرف .

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٥٢٠ ، ص٢٣ ، نقلًا عن : في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٧٧- ٧٨.

وهذه المرحلة في حياة سيد لا يصح تقييمه من خلال ما كتبه فيها ، لأنها مرحلة تمثل ضياعه وجاهليته كما يقول عن نفسه ، والديوان المذكور أثر من آثار تلك المرحلة الجاهلية في حياته ، يؤكد هذا اعتراف سيد نفسه بوضعه في هذه المرحلة فعند حديثه عن أثر الإيمان بعد التزامه بالإسلام يقول : " ومن هذه المعرفة التي يقدمها الإيمان للمؤمن يستمد المؤمن الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ولما يقع ، فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟.. ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ، وعدم معرفة المطوي من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته في ذلك الطريق ، ... يختفي شعور كشعور الخيّام الذي عبر عنه بما ترجمته :

لبست ثـوب العمر لم أستشـر ∴ وحِـرتُ فيه بين شتى الفِكـر

وسـوف أنضو الثوب عني ولم ∴ أدرِ لمـاذا جئت ؟ أيـن المفـر

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم ، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائرًا أين يمضي ∴ ولماذا ؟ كيف - لو شاء - يمضي

عبثٌ ضائعٌ وجهدٌ غبيـنٌ ∴ ومصيرٌ مقنـعٌ ليـس يُرضـي

فأنا أعرف اليوم - ولله الحمد والمنة - أنه ليس هناك جهد غبين فكل جهد مجزي، وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر ، وأن المصير مرض ، وأنه بين يدي عادل رحيم ، وأنا أشعر اليوم - ولله الحمد والمنة - أن الكون لا يَقف تلك الوقفة البائسة أبدًا ، فروح الكون تؤمن بربها وتتجه إليه وتسبح بحمده ، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة ، وفي رضىً وفي تسليم " [1].

**ويؤكد ذلك أيضًا** : ما نقله معاصروه عنه، ومن ذلك قول الأستاذ / يوسف

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٥٢ ، ٣٣٥٣ .

العظم عن سيد : " غير أن أستاذنا في أخريات عهدنا به ، كان يصرح بأن الديوان "أثر من آثار جاهليته ، وكم كان يحب أن تصل يده إلى كل ما جاء فيه في كل نسخة وصلت أي بقعة في الأرض حتى يأتي عليه " (١).

فكيف يصح محاكمة الشخص إلى كلام قاله في مرحلة يرى هو نفسه أنها تمثل حالة الجاهلية عنده، وإلى ديوان كان يتمنى بعد التزامه أن تصل يده إليه في أي مكان من الأرض لتمزقه ، مما يدل على أنه تخلى عماّ كان في هذه المرحلة – والتوبة تجب ما قبلها .

**أما ما يتعلق بمدح سيد لعقيدة النيرفانا – كما يقول المدخلي – فبيان ذلك كالآتي :**

**أولا :** أن هذا الكلام الذي ذكره سيد كان في أحد كتبه الأدبية السابقة لمرحلة التزامه بالإسلام ، وهي مرحلة لا يجوز محاكمته إلى ما فيها ، خاصة إذا كان له ما ينقضها بعد التزامه .

**ثانيًا :** أن سيدًا – رحمه الله – بعد التزامه بالإسلام ، تعرض لعقيدة النيرفانا وما فيها من حلول وتثليث بالنقد في آخر كتبه (خصائص ومقومات التصور الإسلامي) مما يدل على أن كلامه السابق كان في مرحلة معينة ، وجاء من خلال نقده الأدبي وتصويره لواقع ما يعيشه أهل تلك الديانة .

**يقول سيد :** " كان التوحيد هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها ، ويكررها في قصة كل رسول ، كما يقررها إجمالًا على وجه القطع واليقين ...

ولكن هذا التوحيد الذي جاء به الرسل جميعًا ، حُرِّفَ ، ودخلت فيه الأساطير في شتى المعتقدات ، سواء في الديانات التي تنسب إلى السماء ، أو في الوثنيات التي اختلطت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير في شتى الأزمان ...

ثم ذكر نماذج للانحراف عن التوحيد ومنها : الهندوكية التي اعترفت بواحد هو وحده " الموجود " وهو " براهما " وجعلت من صفاته : التفرد بالكمال بالخير والدوام والأزلية ، وجعلت ما عدا هذا الواحد الموجود " عدما " لا وجود له ،

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، د/ صلاح الخالدي ص ٢٢١ .

فهذه الأكوان وما فيها عدم، لكنها من جانب آخر جعلت " الوجود " الذي هو الخير والكمال يحل في " العدم " الذي هو الشر والنقص ، فـ (براهما ) حالٌ في كل جزء من أجزاء هذا العالم – الذي هو عدم – فكل جزء من أجزاء هذا العالم – بما في ذلك الإنسان – مؤلف إذن من وجودٍ وعدمٍ ، من خيرٍ وشرٍ ، من كمالٍ ونقصٍ، من بقاء وفناءٍ ! .

ومهمة الهندوكي إذن هي المحاولة المستمرة لتخليص الوجود والخير والكمال والبقاء الذي في كيانه من العدم والشر والنقص والفناء ، " ليصير " براهما .. ومن هنا حرصه على إفناء جسمه الذي هو العدم لينطلق " الوجود " الحال فيه ، ويصبح طليقًا " وهذه هي درجة " النيرفانا " وهي تمثل الخلاص والعودة " براهما " ! .

ومع ذلك فقد شاب هذا التوحيد – على ما به من حلول – شائبة من" التثليث" إذ اعتبروا " براهما " صورة من صور ثلاث للإله الواحد ،الإله " براهما " في صورة الخالق ، والإله " فشنو " في صورة الحافظ ، والإله " سيفا " في صورة الهادم ، ثم جعلوا " الكارما " هي " القدر" الغالب على الآلهة وعلى الأفلاك ، وهو الذي يكرر على العالم دورات الخلق والفناء ، فلم تسلم عقيدة التوحيد حتى في صورتها تلك المليئة بالإحالات "[1].

ويقول أيضًا " أما الأساطير والتصورات الوثنية فقد يبدو لنا اليوم أنها انتهت وانقضت ، ولم تعد ذات موضوع يعالجه التصور الإسلامي الصحيح ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فما يزال مئات الملايين من البشر في الهند واليابان والتبت وسيلان والفلبين... وغيرها غارقة في أساطير الوثنية وتصوراتها عن " حقيقة الألوهية " وعن " حقيقة الكون" تبعًا لذلك ، وما يزال أمام التصور الإسلامي الصحيح لهذه الحقائق الأساسية مجال عمل مفتوح .

إن بعض العقائد الهندية – تتصور – كما أسلفنا – أن هذا الكون يفنى ويتجدد في أدهار معلومة ، وذلك بفعل " الكارما " أو " ما ينبغي أن يكون" وذلك مع اعتقادها بوجود إلهي له حالات ثلاث، كما أن بعضها يرى أن هذا الكون المادي" عدم " لا وجود له، ولكن الوجود الإلهي وهو الوجود الحقيقي حين " يحل " في

(١) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ١٩١ – ١٩٣ بتصرف يسير .

هذا العدم ، فإنه يتجلى في الصورة المادية ومن ثم فكل ما نرى في الكون إنما هو من أثر "حلول " الوجود الإلهي في هذا العدم : ثم ذكر أمثلة للوثنيات عند مختلف الأمم" (١).

ومن هذين النصيين نجد أن سيدًا ينتقد عقيدة النيرفانا ، ويجعلها مع أصلها وهو الديانة الهندوكية ديانة وثنية قائمة على أساطير وخرافات وتناقضات كفكرة الحلول والتثليث وغيرها ، وأنها تمثل الانحراف عن التوحيد ، وهذان النصان في آخر ما كتبه سيد ، مما يدل على أن ما ذكره الدكتور/ المدخلي واستدل به كان في فترة من فترات الضياع الفكري لسيد كما أسلفنا ، وأنه بعد أن التزم بالإسلام عمل على توضيح التصور الإسلامي ونقد ما سواه بما في ذلك عقيدة النيرفانا.

**الفرع الثاني :مناقشة السبب الثاني :" الاعتماد على كلام أدبي موهم في الظلال"**

يحسن بنا هنا أن نستعرض عبارات سيد قطب التي أشار إليها ناقدوه وجعلوها مادة اتهام له بالقول بوحدة الوجود في سياقها ، ثم نقف معها وقفات تحليلية ، لتتضح لنا حقيقة الأمر، وذلك كما يأتي :

**النص الأول : " في تفسير سورة الحديد " :**

ابتدأ- سيد- بتقديم للسورة ومحاورها ، ثم ذكر أن مدارها يقوم على تحقيق "حقيقة الإيمان" في القلب، وما ينبثق عنها من خشوع وتقوى وخلوص وتجرد وتضحية ، حيث واجهت القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه فيها تعريف به، مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة، وسيطرتها المطلقة على الوجود ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب والصدور، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح .

وفي مطلعها حشدت خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة ، المحيطة بكل شيء والمهيمنة عليه ، العليمة بكل شيء ، وهي تشرف من عَل على الوجود وما فيه ومن فيه ، حيث تهز القلوب وتجول بها في الوجود كله ، فلا تجد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس بغير الله ، ولا تعلم لها مهربًا من قدرته ولا مخبأ من علمه ولا

(١) مقومات التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ٣٥٦ وما بعدها .

مرجعًا إلا إليه ، ولا متوجهًا إلا لوجهه الكريم .

وينطلق النص في مفتح السورة بالتسبيح لله ، فتجاوب معه أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله ، ويهينم كل شيء في السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء .

**ويقرر:** أنه لا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله ، فهو يدل على أن كل ما في السماوات والأرض له روح يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح ، كما تدل على ذلك كثير من النصوص والآثار الصحيحة في الكتاب والسُّنَّة [١].

ثم بعد هذه المقدمة للسورة يقول : " - وما يكاد يفيق - أي القلب البشري - من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى لعلها أضخم وأقوى، حقيقةُ أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة ، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده -سبحانه - ومن ثم فهي محيطة بكل شيء - عليمة بكل شيء ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.الأول ، فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء .

الأول والأخر مستغرقًا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقًا كل حقيقة المكان وهما مطلقتان ، ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله ، وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه ،حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدًا من وجود الله ، فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده ، وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقة ، وليس وراءها حقيقة ذاتية ، ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ علم الحقيقة الكاملة فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها ، فهي مستغرقة إذن بعلم الله اللدني بها ، العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء ! .

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب ، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٦- ٣٤٧٨ بتصرف .

الله ، وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود - في ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى ؟ وكل شيء وهمٌ ذاهب ، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله ، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء ؟ .

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة ، فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة الوصول إلى هذه المدلول الواحد وكفى ! .

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها و فيها وسلكوا إليها مسالك شتى ، بعضهم قال : إنه يرى الله في كل شيء في الوجود ، وبعضهم قال : إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود ، وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئًا غيره في الوجود ، وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال ، إلا أن ما يؤخذ عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور ، والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة ، ويعيش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة ، من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض ، باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورًا متزنًا ، متناسقًا مع فطرة الإسلام وفطرة الكون كما خلقها الله "[1].

**النص الثاني : " في تفسير سورة الإخلاص " :**

بيَّن سيد في مقدمة السورة ، " أن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[2] هي عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة.. ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ وهو لفظ أدق من لفظ " واحد " لأنه يضيف إلى معنى "واحد " أن لا شيء غيره معه ، وأنه ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود ، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته ، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٨- ٣٤٨٠ .

(٢) سورة الاخلاص ،الآية: ١ .

ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي – من ثم – أحدية الفاعلية ، فليس سواه فاعلًا لشيء أو فاعلًا في شيء ، في هذا الوجود أصلا ، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضًا .

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية ، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود – إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا – فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية ، فعلام يتعلق بالقلب بما لا حقيقة لوجوده ولا فاعليته ! .

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة ، فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الأوهاق ، يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهي اصل قيود كثيرة ، وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئًا متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟.

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله ، مستصحبة رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها – وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئًا في الكون إلا الله لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ، ورد كل شيء ، وكل حدث ، وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت ، وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني، ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائمًا ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله ،﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٣) وغيرها.

(١) سورة الأنفال ،الآية: ١٧ .
(٢) سورة لأنفال ،الآية: ١٠ .
(٣) سورة الإنسان ،الآية: ٣٠ .

وبتنحية الأسباب الظاهرة ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، وينفي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود ! .

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله ، وأن لا وجود إلا وجوده ، وأن لا فاعلية إلا فاعليته ، ولا يريد طريقًا غير هذا الطريق "[1].

ثم يقرر سيد بعد هذا أنه من هذا التصور لأحدية الله ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات ، منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السراء والضراء ، في النعماء والبأساء وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودًا حقيقيًا ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلًا ؟ .

ومنهج للتلقي عن الله وحده ، في كل شؤون الحياة ، ومنهج للتحرك والعمل لله وحده ، ومنهج يربط بين القلب البشري وما حوله من الموجودات ، وكل ذلك لتحقيق الخلافة في الأرض والقيادة بكل أعبائها .

**ثم يقول :** " ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والتوضيح " .

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ ومعنى الصمد اللغوي : السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بأذنه ، والله – سبحانه – هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد ، وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات ،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٢- ٤٠٠٣ .

وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه ، وهذه الصفة متحققة ابتداءً من كونه الفرد الأحد ، و" لم يكن له كفوًا أحد " أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ ، لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقية الفاعلية ولا في أي صفة من الصفات الذاتية ، وهذا كذلك يتحقق لأنه " أحَد " ولكن للتوكيد والتفصيل .."[1].

**ب ) وقفه تحليلية مع النصين السابقين :**

**إن المتأمل في النصين السابقين والسياق الذي وردا فيه يجد ما يأتي :**

**أولا :** أنه لا يوجد فيهما تصريح من سيد بالقول بوحدة الوجود .

**ثانيًا :** أن كلام سيد في النص الأول كان حديثًا عن " الحقيقة الإلهية " وأن الله الخالق لهذا الكون وما فيه ، والعالم بكل شيء والمحيط به ، والفاعل الحقيقي فيه، وكل ما في الوجود خاضع لله عز وجل ، لا يخرج عنه أمره ، وأن الله في علاه يشرف على الوجود وما فيه ومن فيه ، وأن كل ما في الوجود يسبح خالقه حقيقة . وتصور هذه الحقيقة على هذا النحو يجعل المسلم يحيا في ظلالها ، ويتلمس آثارها في حياته وعند ذلك لا يلتفت إلى شيء غير الله ، ولا يحفل بشيء سواه ، لأنه وحده هو الحق.

**ثالثًا :** أن كلام سيد قطب في النص الثاني كان عن " أحدية الوجود " التي لا تكون إلا لله ، وليس عن " وحدة الوجود " بالمفهوم المنحرف ، فهو يتحدث عن أحدية الوجود التي ينتج عنها " أحدية الفاعلية " التي ينتج عنها نفي فاعلية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة في هذا الكون إلى الله وحده – سبحانه – وينتج عن ذلك تنحية الأسباب الظاهرة عن التأثير في هذا الكون ، والانتباه إلى المسبب الذي خلق هذه الأسباب ووجهها كيف شاء .

**رابعًا :** أن كلام سيد السابق في الموضعين هو دعوة للمسلم والداعية على وجه الخصوص أن يعيش هذه الحقائق الإعتقادية ويحيا بها ، ويتلمس آثارها التربوية والعملية والحركية على نفسه ، وفي شعوره وكيانه وحياته وحركاته ، بحيث لا يرجو إلا الله ، ولا يخاف إلا من الله ، لأنه لا فاعلية حقيقة في الوجود إلا لله ، وهذا له أثر عظيم في حياة الداعية ، حيث يجعله يتحرك بدينه ، ويؤدي خلافته ويسعى

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٣ – ٤٠٠٤ بتصرف .

جاهدًا لتحقيق منهج الله في الأرض .

إذًا : فهدف سيد من كلامه السابق في النصين هو تقرير " حقيقة الألوهية" لهدف اعتقادي تربوي عملي حركي ، فهو يخاطب الدعاة بذلك ليكونوا عقيدتهم ويعيشوا بها، ويتحركوا بدينهم ، ويتوجهوا بقلوبهم وكيانهم كله إلى خالقهم ، الأحد في وجوده وفاعليته ، فتمتلئ قلوبهم طمأنينة ويقينًا وثباتًا وجهادًا وعقيدة وتوحيدًا ، وتوكلًا واستعانة [١].

وهذه هي إيجابية العقيدة الصحيحة ، لذا نجد سيد - رحمه الله - في كلامه ينتقد المتصوفة ويأخذ عليهم سلبياتهم وانعزاليتهم التي قادتهم إلى القول بوحدة الوجود أو التي كانت نتيجة لعقيدة وحدة الوجود عندهم .

**خامسًا :** أن العبارات التي وردت في كلام سيد حول نفيه " للوجود المخلوق" أو " الكينونة المخلوقة " أو نحوها من العبارات ، لا يعني نفي الوجود الفعلي لذلك ، وإنما يمكن حملها على نفي وجود الفاعلية والتأثير، ووجود البقاء الذاتي ، والاستقلال الذاتي ، لأن الله وحده هو المتفرد بكل مقومات الوجود الحق الفاعل المؤثر ، وما سواه سبحانه فإنما يستمد وجوده وفاعليته من إيجاد الله له .

فنفي سيد للوجود الآخر لغير الله ، لا يعني بالضرورة نفي الوجود الفعلي الواقعي - فهذا قائم مسلم - بل قد يكون مقصده نفي التأثير والفاعلية عنه ، فيكون المعنى أن ما سوى الله موجود وقائم له مكان وحيز لا ينكر، ولكنه لا فاعلية له ولا تأثير ، ولا يملك حركة ولا ضرًا ولا نفعًا، وعندما يدعو- سيد - كل داعية إلى أن يعيش هذه الحقيقية ، ويتعمق فيها ، حتى لا يرى إلا يد الله، ولا يرى شيئًا في الكون إلا الله ، فإنه لا يقصد بذلك الرؤية العينية البصرية ، وإنما يقصد بذلك الرؤيا القلبية الشعورية ، رؤيا المشاعر والأحاسيس ، فالعين ترى الموجودات القائمة في الوجود ، لكن القلب والمشاعر ينفيان عنها الفاعلية والتأثير [٢].

**سادسًا:** أن عبارات -سيد قطب - في نفي الوجود والرؤية والتي سبق بيان مقصده منها يوجد في كلام كثير من أهل السُّنَّة والجماعة مثلها أو أقوى منها ،

(١) في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ص ٨١ وما بعدها بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، د/ صلاح الخالدي ص ٨٣ بتصرف .

ومقصد سيد من هذه للألفاظ قد يكون هو مقصدهم منها،ومن الأمثلة على ذلك:

تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن النوع الثاني من أنواع الفناء في الله وعبادته وهو ما سماه " الفناء عن شهود السوى " فقال : " فإذا قوي على صاحب هذا الفناء ، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته ، حتى يفنى من لم يكن – وهي المخلوقات العبد فما سواه – ويبقى من لم يزل ، وهو الرب تعالى ، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤها عن أن يدركها أو يشهدها " [١].

**ويقول في موضع أخر :** " إذا قال أحد المشايخ : ما أرى غير الله ، أولا أنظر إلى غير الله ونحو ذلك فمرادهم بذلك : ما أرى ربًا غيره ، ولا خالقًا ولا مدبرًا غيره ، ولا إلهًا لي غيره ، ولا أنظر إلى غيره محبة له ، أو خوفًا منه أو رجاءً له " [٢].

**يقول ابن القيم - رحمه الله –:** " والجحد في الشهود لا في الوجود ، أي يجحده أن يكون مشهودا فيجحد وجوده الشهودي العلمي ، لا وجوده العيني الخارجي، فهو أولا : يغيب عن وجوده الشهودي العلمي ، ثم ينكر ثانيًا : وجوده في علمه، وهو اضمحلاله جحدًا ، ثم يرتقي من هذه الدرجة إلى درجة أخرى أبلغ منها ، وهي اضمحلاله في الحقيقة ، وأنه لا وجود له البتة ، وإنما وجوده قائم بوجود الحق، فلولا وجود الحق لم يكن هو موجودًا ، ففي الحقيقة : الموجود إنما هو الحق وحده ، والكائنات من أثر وجوده ،فهذا معنى قولهم : إنها لا وجود لها ولا أثر لها، وأنها معدومة وفانية ومضمحلة " [٣].

يقول الإمام أبو إسماعيل الهروي [٤] عن الفناء : " هو اضمحلال ما دون الحق علمًا ، ثم جحدًا ثم حقًا ، وهو على ثلاث درجات :

**الدرجة الأولى :** فناء المعرفة في المعروف ، وهو الفناء علمًا ، وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحدًا ، وفناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقًا .

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ط١، عام ١٤٢٠هـ، ص ١٤٦، وما بعدها.
(٢) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية١٥٢.
(٣) مدارج السالكين ،لابن القيم ١/ ١٦٨، وما بعدها.
(٤) هو : عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي أبو إسماعيل، ولد بقندهار سُنَّة ٣٩٦هـ محدث ومؤرخ ومتكلم، له عدة مؤلفات، توفي سُنَّة ٤٨١هـ ،انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٦٣، ومعجم المؤلفين ٦/ ١٣٣.

**والدرجة الثانية :** فناء شهود الطلب لإسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها، وفناء شهود العيان لإسقاطه.

**والدرجة الثالثة :** الفناء عن شهود الفناء ، وهو الفناء حقًا "[١].

ولا شك أن كلام أبي إسماعيل الهروي هنا أكثر تصريحا من كلام سيد السابق ولذا اتهم – أي الهروي – بالقول بوحدة الوجود ، بناء على ما سبق من كلام له في النص، ولكن ابن القيم – رحمه الله – دافع عن الهروي في كلامه السابق بقوله: " وحاشا شيخ الإسلام – الهروي – من إلحاد أهل الإلحاد ، وإن كانت عبارته موهمة، بل مفهمة ذلك "[٢].

ويرد أيضًا على من يتهم الهروي بالقول بوحدة الوجود فيقول : " وهذا كذب على شيخ الإسلام وليس مراده : فناء شهود العيان ، فيفنى عن مشاهدة المعاينة، ويغيب بمعاينة عن معاينته ، وليس مراده : انتفاء الشهود والتغاير بين المعاين والمعايَن ،وإنما مراده : انتفاء الحاجب عن درجة الشهود ، لا عن حقيقة الوجود، وفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي ، وإسقاطه عن رتبة الوجود العيني الخارجي ، فشيخ الإسلام – بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء – هذا مرادهم "[٣]. " وليس مرادهم فناء موجود ما سوى الله في الخارج ، بل فناؤها عن شهودهم وحسهم ، فحقيقة : غيبة أحدهم عن سوى مشهوده ، بل غيبته عن شهوده نفسه "[٤].

**سابعًا :** أن في كلام – سيد– في النصين المذكورين عبارات واضحة يفرق فيها بين الخالق والمخلوق ، والإله والعبد ، فيثبت المغايرة بينهما ، حيث يثبت " متوجهًا ومتوجَهًا إليه" و " ومسبحًا ومسبَحًا بحمده " و " ومستمدًا ومستَمَدًا منه" و "طَالبًا ومطلوبًا منه " و " راهبًا ومرهوبًا منه " ، و" وقاصدًا ومقصوداً " و " سائلًا ومسؤلًا مجيبًا " و " إلهًا وعبيدًا " ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في كلام سيد وهي كلها تثبت المغايرة وتبطل دعوى "وحدة الوجود" عنده .

(١) منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي ، ص١٢٧ .
(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١٧٠ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٧٢ .
(٤) المصدر السابق ١/ ١٧٥ .

ويؤكد ذلك أيضًا أن سيدًا - رحمه الله - جعل فائدة استشعار هذه الحقيقة - حقيقة الألوهية - كما أوضحها هي الإقبال على عبادة الله وإفراده سبحانه بها وتحقيق منهجه في الأرض، بينما القائلون بوحدة الوجود يرون أنه لا داعي لعبادته وحده ، فكل ما عبد في الأرض فهو معبود بحق لأنه ليس في الوجود إلا الله ، أو أنه لا داعي للعبادة أصلًا فالعبد هو الله "[1].

وقد يصر البعض بعد ما سبق بيانه على أن يفهم من كلام سيد في الموضعين السابقين ، قوله بوحدة الوجود ، وقد نسمح له بذلك ، إذا لم نجد لسيد قطب كلامًا صريحًا قاطعًا في نقض " وحدة الوجود " ، فهل يوجد لسيد كلامٌ صريحٌ في ذلك ؟

الجواب: نعم وهو ما سنعرضه في المطلب الآتي :

(١) ينظر كلامهم في : فصوص الحكم لابن عربي ص ٤٤٠ ، والإنسان الكامل للجيلي ١/ ٢٣ ، و الموسوعة الميسرة ٢/ ٧٩٦.

obeikandl.com

## المطلب الثالث

## سيد قطب ونقض " وحدة الوجود "

من خلال قراءة ما كتبه سيد في كتبه الإسلامية وخاصة الأخيرة منها كالظلال في طبعته المنقحة والخصائص والمقومات نجد أن له - رحمه الله - كلامًا كثيرًا في نقد لفكرة " وحدة الوجود " وإبطالها بل واعتبارها كفرًا لا يقول به مسلم .

**ويمكن تصنيف النصوص الواردة في هذا الموضوع إلى الآتي :**

**أولًا : نصوص تقرر أن أعلى مقامٍ يمكن أن يرتفع إليه العباد هو مقام العبودية :**

ففي ظلال قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]. يقول سيد - رحمه الله -: "ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال، يصف الرسول ﷺ بالعبودية لله ، ولهذا الوصف في هذا الموضوع دلالات منوعة متكاملة فهو: أولا: تشريف للنبي ﷺ وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ، دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك ، و ثانيًا : تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده ، واطراح الأنداد كلها من دونه، فها هو ذا النبي ﷺ في مقام الوحي - وهو أعلى مقام - يدعى بالعبودية لله ، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام[2].

وفي ظلال قوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[3] ، يقول - رحمه الله -: "وهذه الصفات تقرر حقيقة وتوحي للنفس بها وتفرد الله سبحانه بالعلو ، وتفرده سبحانه بالعظمة على سبيل القصر والحصر ، فلم يقل " وَهُوَ عَلِي عَظِيمٌ" ، ليثبت الصفة مجرد إثبات ، ولكنه قال: ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك ! .

إنه المتفرد بالعلو ، والعظمة ، وما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٨.
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

ويرده الله إلى الخفض والهون، والعذاب في الآخرة .. ويعلو الإنسان ما يعلو ، ويعظم ما يعظم ، فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم، وعندما تستقر هذه الحقيقة في نفس الإنسان فإنها تثوب إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه، وترده إلى مخافة الله ومهابته والشعور بجلاله وعظمته ، والأدب في حقه "[1].

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[2]، يقول سيد : " فالمسيح ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبدًا لله ، لأنه - عليه السلام - وهو نبي الله ورسوله - خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان وهو خير من يعرف أنه من خلق الله ، فلا يكون خلق الله كالله ، أو بعضًا من الله ، وهو خير من يعرف أن العبودية لله - فضلًا على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة - لا تنقص من قدره ، فالعبودية لله مرتبةٌ لا يأباها إلا كافرٌ بنعمة الخلق والإنشاء ، وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده ، وكذلك الملائكة المقربون وفيهم روح القدس جبريل عليه السلام "[3].

ويقول - رحمه الله - بعد أن بين قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء: " إن هذه الحقيقة ليست أهميتها في تصحيح التصور الإيماني، وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله ، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق ، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حيث تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها - صغر أم كبر - جزءًا من هذه العبادة ، أو كل العبادة، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه ، وهو إفراد الله سبحانه بالألوهية ، والإقرار له وحده بالعبودية .. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه ، وهو المقام الذي بلغه رسول الله ﷺ في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها ، مقام تلقي الوحي من الله ، ومقام الإسراء أيضًا "[4].

ويقول أيضًا : " وفي موضوع التكريم لرسول الله ﷺ وفي مقام التعظيم يصفه

---

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٩٠ بتصرف .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٧٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٠ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٩ .

بالعبودية ، كما في مقام الإسراء والمعراج ، ومقام الدعاء والمناجاة ، وكذلك مقام تنزيل الفرقان عليه ... والوصف بالعبودية في هذه المواضع له دلالته على رفعة هذا المقام ،وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان ، كما أن فيه تذكيرًا خفيًا بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله ، ويبقى مقام الألوهية متفردًا بالجلالة ، متجردًا من كل شبهة شرك أو مشابهة ، ذلك أن مثل مقام الإسراء والمعراج ، أو مقام الدعاء والمناجاة ، أو مقام الوحي والتلقي كان مزلة لبعض أتباع الرسل من قبل ، منها نشأت أساطير البنوة لله ، أو الصلة القائمة على غير الألوهية والعبودية ، ومن ثم يحرص القرآن على توكيد صفة العبودية في هذا المقام ، بوصفها أعلى أفق يرتفع إليه المختارون من بني الإنسان "[١].

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾[٢] ، يقول – رحمه الله –: " وهذا الإعلان من النبيﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده ، وأن يكون بهذا أول المسلمين وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه ..هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء به الإسلام ، فالنبيﷺ في هذا المقام هو عبد الله ، هذا مقامه لا يتعداه ، وفي مقام العبودية يقف العبيد كلهم صفًا ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد ، وهذا هو المراد ، وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان فلا يختلطان ولا يشتبهان وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه .. "[٣].

**ويقول - رحمه الله – أيضًا** : "وفي مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله ونفي الصاحبة والولد ، وإثبات الجزاء في الآخرة وأن أحدًا من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته ، وتتكرر هذه الحقيقة فيما يوجه للرسولﷺ من الخطاب ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾[٤]، فهذه الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر "[٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٤٧ – ٢٥٤٨ بتصرف يسير .
(٢) سورة الزمر ، الآية ١١.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٤ .
(٤) سورة الجن ، الآية ٢٠ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢٣ بتصرف .

واكتفى بهذه النصوص في هذا الجانب في تقرير سيد لحقيقة الألوهية وأن العباد لا يمكن أن يرتفعوا عن مقام العبودية أبدًا .

## ثانيا : نصوص تنكر الخلط بين مقام العبودية والألوهية بأي صورة من الصور :

**ونظرًا لكثرة النصوص في هذا الجانب فسأكتفي بإيراد مجموعة منها على سبيل التمثيل ومنها:**

في ظلال قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [1].

يقول سيد: "وهذه صفة أخرى من صفات الله ، توضح مقام الألوهية ، ومقام العبودية ، فالعبيد جميعًا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية ، لا يتعدونه ولا يتجاوزونه ، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع ، لذا لا يقدم بين يدي ربه، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده، إلا بعد أن يؤذن له فيخضع للإذن ويشفع في حدوده ، وهم يتفاضلون فيما بينهم ، ويتفاضلون في ميزان الله ، ولكنهم يقفون عن الحد الذي لا يتجاوزه عبد، وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فزعموا لله سبحانه خليطًا يمازجه أو يشاركه بالبنوة أو بغيرها من الصور في أي شكل وفي أي تصور ، أو زعموا له سبحانه أندادًا يشفعون عنده فيستجيب لهم حتما، في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعدة ، لا تخطر على الذهن، ولا تجول في الخاطر، ولا تلوح بظلها في خيال ، وهذه النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي ، فلا تدع مجالا لتلبيس أو وهم أو اهتزاز في الرؤية ، الألوهية ألوهية ، والعبودية عبودية ، ولا مجال لالتقاء طبيعتهما أدنى التقاء ، والرب رب ، والعبد عبد ، ولا مجال لمشاركة في طبيعتهما ولا التقاء ، فأما صلة العبد بالرب ورحمة الرب للعبد والقربى والود والمدد ، فالإسلام يقررها دون ما حاجة إلى خلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية ، ودون حاجة إلى الغبش والركام والزغللة والاضطراب الذي لا تتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة " [2].

**ويقول أيضًا :**"وعقب الإيضاح الحاسم بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .
(٢) في ظلال القرآن ، ١/ ٢٨٨ بتصرف يسير .

وصفاته .. يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات..وهي الله سبحانه.. وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية "[١].

في مقدمته لسورة النساء ذكر أن السورة تعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح، وتواجه العقائد المنحرفة ثم قال : " وفي ثنايا هذا التصحيح يتقرر التصور الإسلامي الصحيح ، ويتمخض الأمر كله في أن يكون : ألوهية وعبودية ، ألوهية الله وحده، وعبودية كل من عداه ، وهي القاعدة الكبرى في العقيدة الإسلامية "[٢]."والله -سبحانه - تعالى عن الشركة وعن المشابهة ، ومقتضى كونه خالقًا يستتبع.. بذاته أن يكون غير الخلق ، وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق والمالك والملك "[٣]، " ويمضي السياق في البيان لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق ، وأن هناك فقط : ألوهية وعبودية ، ألوهية واحدة وعبودية تشمل كل شيء ، وكل أحد في هذا الوجود ، ... لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله - سبحانه - وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور ، وعني بتقرير أن الله ليس كمثله شيء ، فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية، كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله - سبحانه - وكل شيء - بما في ذلك كل حي - وهي أنها صلة ألوهية وعبودية ، ألوهية الله ، وعبودية كل شيء لله .. ألوهية وعبودية ، ولا شيء غير هذه الحقيقة ، ولا قاعدة إلا هذه القاعدة ، ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية ، وصلة العبودية بالألوهية ، ولا تستقيم تصورات الناس وحياتهم إلا بتمحيص هذه الحقيقة من كل غبش وشبهة وضلال.. ويستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم ، هو إله لهم وهم عبيده ، هو خالق لهم وهم مخاليق ، هو مالك لهم وهم مماليك ، وهم كلهم سواء في هذه الصلة لا بنوة لأحد ، ولا امتزاج بأحد ، ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه : التقوى والعمل الصالح "[٤].

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، ٢/ ٨١٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٨- ٨١٩ بتصرف يسير

" وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته وألوهية روح القدس، وفي كل أسطورة، ... فعيسى - عليه السلام - خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان "[١].

" ومن ثم تتوارد النصوص .. في تقرير الألوهية الواحدة ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله - سبحانه - وبين غيره ، أو بين خصائص الألوهية وخصائص العبودية على الإطلاق"[٢].

" وهو - سبحانه - مالك كل شيء ، وخالق كل شيء ، والخالق غير المخلوق، وكل شيء مخلوق ، وبذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية ، وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات ، وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين، بلا غبش ولا شبهة ولا غموض" [٣]. وبهذا يبقى "التميز المطلق بين الذات الإلهية ، وذوات الحوادث "[٤].

ويقول أيضا : " والوصف بالعبودية في هذه المواضع - الإسراء والمعراج والدعاء والمناجاة والوحي والتلقي - له دلالته على رفعة هذا المقام ، وأنه أرفع ما يرتفع إليه بشر من بني الإنسان ، كما أن فيه تذكيرًا خفيًا بأن مقام البشرية حين يبلغ مداه لا يزيد على أن يكون مقام العبودية لله ويبقى مقام الألوهية متفردًا بالجلالة ، متجردًا من كل شبهة شرك أو مشابهة "[٥].

" وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفًا ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد ، وهذا هو المراد ، وعند ذلك يقر معنى الألوهية ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه "[٦]. "ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وبين مقام الألوهية ومقام

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٢٠ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٢٦ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٦٦ بتصرف يسير .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٥٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٤٨ .
٢(٦) المصدر السابق ، ٥/ ٣٠٤٤ ، وينظر أيضًا ٦/ ٣٦٤٦ .

العبودية على حقيقتها الناصعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد ، وبلا وساطة في الطريق " [١].

هذه بعض النصوص الواردة في الظلال ، وهناك غيرها كثيرة يمكن الرجوع إليها [٢].

وبالإضافة إلى ما سبق فإن هناك أيضًا نصوص في كتاب " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " وهو آخر كتب سيد - رحمه الله - يوضح فيها تميز الحقيقة الإلهية عن سواها ، وينكر أي خلط بينها وبين غيرها في أي صورة من الصور ومن هذه النصوص :

**يقول في الخصائص :** " إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلًا تامًا كاملًا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية ، وبين خصائص الألوهية ، وخصائص العبودية ، بحيث لا تقوم شبهة، أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم،الله ليس كمثله شيء ، فلا يشاركه أحد في ماهية أو حقيقة، والله هو الأول والأخر والظاهر والباطن ، فلا يشاركه أحد في وجود ، و كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فلا يشاركه أحد في بقاء " [٣] .

" ويقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك - ألوهية وعبودية ، ألوهية يتفرد بها الله سبحانه - وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه ، وكما يتفرد الله - سبحانه - بالألوهية كذلك " يتفرد" تبعًا لهذا بكل خصائص الألوهية ، وكما يشترك كل حي وكل شيء - بعد ذلك - في العبودية ، كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية ، فهناك إذن وجودان متميزان ، وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله ، والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق ، والإله بالعبيد ، وهذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي ، ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى " [٤].

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٦٥ .

(٢) ينظر : في ظلال القران ،١/ ٣٦٨ ، ٢/ ١١١٠ ، ٣/ ١٤١٠ ، ١٧٤٥، ١٧٥٣ ، ١٧٧٢ ، ٤/ ٢٢١١ .

(٣) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٣٥ .

(٤) خصائص التصور الإسلامي ص ١٩٠ ، وينظر أيضًا : ص ٧٧، ١٠٤ ، ١٥٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤.

**يقول في المقومات :** " إن حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في التصور الإسلامي تقوم على أساس أن هناك ألوهية واحدة لهذا الوجود ، ذات خصائص غير قابلة للشركة ، وعبودية شاملة تتمثل في جميع الخلائق من أشياء وأحياء ، .. عن مشيئة الله الواحد سبحانه صدرت كل هذه الخلائق ، وبقدر الله تقوم وتتحرك لا شرك في هذه الألوهية" (١). " إن التصور الإسلامي يفصل فصلًا تامًا بين طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية ، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية ، وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية ، فهما لا تتماثلان ولا تتداخلان ، كذلك يبين التصور الإسلامي بيانًا حاسمًا : من هو " الله" صاحب الألوهية ، ومن هم " العبيد " الذين تتمثل فيهم العبودية .

إن الألوهية واحدة لا تتعدد ، هي ألوهية الله سبحانه ، والعبودية تتمثل في كل ما وراء ذلك ، وكل ما وراء ذلك فهو من خلق الله ، لم يوجد بذاته ، كما أنه لا يقوم بذاته ، إنما هو مخلوق أوجده الله ، وهو مكفول يكفله الله ، وهو متأثر يتحرك ويتغير بقدر الله " (٢).

" إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة ، قاعدة هذا التصور ، ونقطة الاستقرار الثابتة فيه ، والسمة المميزة له، ومفرق الطريق بينه وبين كل تصور آخر... هذه العبودية الشاملة يتعلق وجودها ابتداء ، ويتعلق تدبيرها وكفالتها بالألوهية المتفردة ، والعلاقة بين الألوهية المتفردة والعبودية الشاملة هي علاقة الخلق والملك والرزق والهيمنة والقوامة بكل معانيها ووظائفها ومقتضياتها" (٣).

" والتركيز في المنهج القرآني ابتداءً على " التوحيد " لا على الوجود ، توحيد الذات الإلهية ، فالله سبحانه ذات واحدة لا تتعدد ، ولا تتبعض ، ولا تندمج معها ذوات أخرى ، ولا تتلبس بها كذلك فلا يشاركها فيها أحد ، ومن وحدانية الذات وتفردها بهذه الصفات تتضح وحدانية الفاعلية والتأثير في الكون وما فيه ومن فيه، ووحدانية الخلق والإنشاء ، ووحدانية الملك والرزق والقوامة والتدبير ، ووحدانية الهيمنة والسلطان في الدنيا والآخرة " (٤).

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٤٣ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٨١ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٠ بتصرف يسير .
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٣، وينظر أيضًا : ص ١١٦ - ١٢٦ .

**ثالثًا : كلام صريح لسيد قطب في نقد فكرة "وحدة الوجود" واعتبارها كفرًا :**

في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] يقول سيد : " وهنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه عن طريقة صدور الخلق عن الخالق ، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعها ...

**والنظرية الإسلامية :** أن الخلق غير الخالق ، وأن الخالق ليس كمثله شيء ، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة " وحدة الوجود " على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح ، أي بمعنى : - أن الوجود وخالقه وحدة واحدة .

- أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق.

- أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده ، أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس .

فالوجود وحدة في نظر المسلم على معنى أخر : وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع "[2].

هذه النقولات الكثيرة وغيرها تدل دلالة واضحة على أن سيدًا - رحمه الله - كان موقفه من قضية وحدة الوجود ، هو موقف المنكر لها الرافض ، وأن كلامه الموهم لا يدل على أنه يقول بها ، لأن عباراته واضحة في التفريق بين مقام الألوهية ومقام العبودية ، وكذا إنكار أي خلط بينهما في أي صورة من الصور - كما سبق - بالإضافة إلى كلامه الصريح في نقضها واعتبارها مصطلحًا لا يقول به مسلم .

وإذًا : فلا يصح الانطلاق من كلامه الأدبي الموهم لتقرير موقفه من هذه المسألة ما دام أن له كلامًا واضحًا بينًا كثيرًا ، وخاصة في الطبعة المنقحة من الظلال وفي آخر كتبه "خصائص ومقومات التصور الإسلامي " ، ومن باب أولى لا يصح الاعتماد

(١) سورة البقرة ، الآيات ١١٦ - ١١٧ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٠٦

على كلامه في أشعاره أو قصصه السابقة لالتزامه بالإسلام .

**تنبيه :**

أورد الدكتور / ربيع المدخلي في كلامه عن وحدة الوجود عند سيد قطب أن -سيدًا- قررها في بداية حياته ثم نفاها أول الظلال ثم عاد يقررها في آخر الظلال في سورة الحديد والإخلاص ، وقرر أن كلام سيد قطب في سورتي الحديد والإخلاص هو ما استقر عليه في النهاية ، وحاول أن يستدل لهذا القول بأن سيدًا - كتب الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال بعد أن استقر على المنهج الحركي في فهم القرآن والحركة به وبالتالي فكلامه في سورة الحديد والإخلاص هو المعتمد "[١].

**ولي مع كلام الدكتور المدخلي وقفات :**

**الأولى :** أن المدخلي يناقض نفسه بنفسه في كتبه ، ففي كتاب أضواء على عقيدة سيد قطب، يستعرض كلام سيد في سورة البقرة ويقول : " هذا الكلام الجيد القوي الذي هاجم فيه وحدة الوجود مهاجمة من يعرف أنها كفر وضلال ، وأنها عقيدة غير المسلمين ، ومهاجمة دارس يعرف أصنافها وأشكالها وتفاصيلها "[٢].

ولكنه في رده على الشيخ / بكر أبو زيد في كتاب الحد الفاصل يقول في كلام سيد نفسه في سورة البقرة : " وفي حدود سُنَّة ١٩٥١م تظاهر بنفي القول بوحدة الوجود في أول تفسير سورة البقرة بأسلوب بارد لا ندري ما باعثه ! "[٣]، فما الذي تغير !!!.

**الثانية :** يقرر أن كلام سيد في تفسير سورة الحديد والإخلاص ينقض ما قاله في تفسير سورة البقرة بناءً على أنه ثبت واستقر على تفسير الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الظلال لأنه انطلق منها بمنهجه الفكري والدعوي والحركي[٤].

**أقول :** هذا الاستدلال غير موفق ، فصحيح أن سيدًا كتب الأجزاء الستة والعشرين من الظلال بطريقة معينة ، ثم تحول إلى منهج جديد في الكتابة بعد ذلك، فأكمل به الظلال ، لكنه أيضًا ، عاد بالمنهج الجديد ليعيد النظر في تفسيره

(١) أضواء على عقيدة سيد قطب ، د/ ربيع المدخلي ص ١٦٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) الحد الفاصل ، د/ ربيع المدخلي ص ٧٢ ، ٧٥ الهامش .
(٤) المصدر السابق ،د/ ربيع المدخلي ، ص ٧٥ .

من أوله بناءً على إدراكه الجديد وراجع ونقح منه ثلاثة عشر جزءًا من أول الظلال، فيكون ما قرره في تفسير سورة البقرة هو الحق لأنه كان بعد تفسير سورة الحديد والإخلاص وهذا ما ذكره الخالدي نفسه [1]، ولا أدري لماذا رجح الدكتور / ربيع العكس رغم أنه اعتمد على كلام الخالدي وهو واضح .

**الثالثة :** نقل الدكتور / المدخلي كلام الخالدي في مراحل تأليف الظلال ، ولما وصل إلى المكان الذي ذكر فيه الخالدي أن – سيدًا – كتب الأجزاء العشرة الأولى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد ، وعلى منهج جديد فكان يقف عند الآيات طويلًا .. إلى آخر كلام الخالدي حول منهج سيد فيها ، وكذلك كلام الخالدي في أن سيدًا راجع الأجزاء ١١ – ١٣ من الظلال بعد خروجه من السجن عام ١٩٦٤م وحتى منتصف ١٩٦٥م .

**أقول :** لما وصل إلى هذه النقطة المهمة أسقطها كلها وهي أكثر من نصف صفحة ونقل ما بعدها والفقرة التي أسقطها الدكتور ربيع من كلام الخالدي هي قوله : " كتب سيد قطب الأجزاء العشرة الأولى من الطبعة الثالثة المنقحة بتركيز شديد، وعلى منهج جديد ، وبطريقة جديدة ،فكان يقف عند الآيات طويلا ، ويسجل خواطره حولها ، ويتعرض للحديث عما توحي به من قضايا في العقيدة والحركة، أو الفقه والتشريع، أو السياسة والاقتصاد ، أو التاريخ والاجتماع ،أو غير ذلك، وكانت أطول وقفاته وأعمقها وأنضجها تلك التي تتعلق بالعقيدة والحركة ، والألوهية والعبودية والحاكمية والتشريع.

وكان الجزء السابع هو أكثر الأجزاء تركيزا ، وأنضجها فكرا ، إذ توسع في الحديث عن العقيدة ومباحثها ، وفي مقدمته الطويلة لسورة الأنعام وأثناء تفسيره لها .

وفي الأجزاء الثلاثة الباقية من الطبعة المنقحة – الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر – لم يقف طويلا عند الآيات ، لأنه قال معظم ما يريد قوله في الأجزاء السابقة وصار يعقب على الدروس والسور ! وقد كتب هذه الأجزاء الثلاثة في الفترة التي أطلق سراحه فيها ، من نهاية عام ١٩٦٤م وحتى منتصف ١٩٦٥ ".

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٤٨ – ٥٠ ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص٥٤٧، ٥٤٨

ثم عاد لينقل كلام الخالدي ابتداءً من قوله : كان سيد قطب يريد أن يعيد كتابة أجزاء الظلال من الرابع عشر حتى السابع والعشرين ، وأن يفسرها على أساس منهجه الحركي الجديد ، أما الأجزاء الأخيرة فسيتركها على ما هي عليه لأنه ألفها على أساس ذلك المنهج"(١) .

والذي يظهر- والله اعلم- أن إسقاط هذا الجزء من كلام الخالدي ليسلم الاستدلال على أن سيدًا إنما اهتم بالمنهج الحركي فقط في الطبعة المنقحة ، بدليل أنه نقل بعدها كلام الخالدي في أن- سيدًا - لن يعدل شيئًا في الأجزاء الثلاثة الأخيرة، فالهدف إثبات أن كلام سيد في سورتي الحديد والإخلاص ناسخ لكلامه في سورة البقرة ، وهي مغالطة مكشوفة ، لأن كلام الخالدي يقرر أن ما في سورة البقرة كان بعد ما في سورتي الحديد والإخلاص ، وأما قول الخالدي: بأن سيدًا لن يغير شيئا في الأجزاء الأخيرة وهوما بنى عليه المدخلي كلامه فهو مجرد رأي ، لأنه لا يوجد ما يدل على أن سيدًا لن يغير شيئا في الأجزاء الأخيرة إذا وصل إليها !

وعموما كان الأحرى بالدكتور ربيع أن يقول ما قاله الشيخ الدويش - رحمه الله - حيث استعرض كلام سيد في سورة الإخلاص ونقده ، ثم قال " ولعله - أي سيد - لم يقصد ما يفهم من قول الاتحادية ، ونحن إنما قصدنا التنبيه على كلامه لئلا يغتر به من لا يفهمه ، وأما هو - أي سيد - فله كلام صريح في الرد على الاتحادية كما قال في كتابه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٥٥- ١٥٦ ، " إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلًا تامًا كاملًا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ..." ثم نقل كلام سيد كاملًا " (٢) .

وحتى لو لم يكن لسيد كلام صريح في نقض وحدة الوجود فإن كلامه في سورتي الحديد والإخلاص موهم محتمل ، وبالتالي فلا يصح الجزم باتهامه ، فما بالك وله كلام صريح حاول بعضهم بطريقة أو بأخرى إبطال دلالته بمنهج ينافي الأمانة العلمية كما سبق .

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ، ص ٥٠ ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٥٤٧، ٥٤٨ .

(٢) المورد الزلال، للدويش ص ٣١٤- ٣١٥ .

## المبحث الرابع
## منهجه في الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر داخل في توحيد الربوبية ، لأن الأصل فيه هو الإيمان بربوبية الله التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن بأنه قادر على تلك الأشياء[١] . ولهذا ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : " القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه "[٢]، كما أن للقدر تعلق أيضًا بتوحيد الأسماء والصفات ، لأنه من صفات كمال الله .

وموضوع الإيمان بالقدر وما يرتبط به ، من الموضوعات التي تكلم فيها سيد قطب - رحمه الله - في مواضع متفرقة من كتبه ، ومجموع كلامه في هذه المواضع شامل لأغلب المسائل التي يتكلم عنها علماء العقيدة في باب القدر .

**وسوف أعرض منهجه في مسائل القدر من خلال المطالب الآتية :**

**المطلب الأول : تعريف القدر ومكانة الإيمان به في الدين .**

**المطلب الثاني : منهجه في إثبات القدر وموقفه من الفرق المخالفة .**

**المطلب الثالث : أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية .**

**المطلب الرابع : قضايا متعلقة بالقدر .**

(١) ينظر في ذلك : شرح الطحاوية ص ١١٧ ، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٣٣ .
(٢) الأثر رواه الإمام أبو القاسم اللالكائي في شرح أهل اعتقاد أهل السُّنَّة ٤/ ٦٨٩ ، وفي سنده ضعف.

## المطلب الأول
# تعريف القدر ومكانة الإيمان به في الدين

أ – في اللغة :القَدَر والقَدْر– بفتح الدال وإسكانها – لغتان بمعنى : مبلغ الشيء وكنهه ونهايته [١].

وقَدَرتُ الشيء – بتخفيف الدال وفتحها – قَدْرًا وقَدَرًا إذا أحطت بمقداره ، ويأتي أيضًا بمعنى القضاء [٢].

ب – في الاصطلاح : القدر يعني : " تقدير الله للأشياء في القدم وعلمه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة ، وكتابته لذلك ، ومشيئته لها ووقوعها على حسب ما قدرها ،وخلقه لها " [٣].

**قال ابن القيم - رحمه الله** – : " والإيمان بالقدر يعني : الإيمان بعلم الله تعالى السابق ، وكتابته وإرادته ومشيئته وخلقه لأفعال عباده مع إثبات قدرتهم المؤثرة في هذه الأفعال " [٤].

ج – علاقة القدر بالقضاء : القضاء في اللغة وفي الشرع يأتي على عدة معانٍ منها : الأمر ، والحكم، والخلق، والصنع، والوفاء، والفراغ من الشيء، والإتمام، والقتل، والإحصاء، والتقدير، والإعلام [٥].

**وقد ذكر العلماء أقوالًا كثيرة في علاقة القدر بالقضاء منها [٦]:**

١ – أنهما مترادفان .

٢ – أن القضاء يعني : الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل ، والقدر

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٦٢ ، ولسان العرب لابن منظور ٥/ ٧٤ .
(٢) فتح الباري ١/ ١٦٢.
(٣) انظر : لوامع الأنوار للسفاريني ، مؤسسة الخافقين، دمشق ط٢ عام ١٤٠٢هـ،١/ ٣٤٨ .
(٤) شفاء العليل لابن القيم ، ص٦٥ . وفتح الباري ، لابن حجر ، ١/ ١١٨ .
(٥) هدي الساري مقدمة فتح الباري ، لابن حجر، دار الفكر، بيروت، ط عام ١٤١١هـ ص ١٧٤.
(٦) ينظر الأقوال في: المفردات للراغب للأصفهاني ص ٦٧٢، ولوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٣٤٥، والتعريفات للجرجاني ص ١٥١، ١٥٢، وفتح الباري ١٣/ ٣١٢.

يعني : الحكم بوقوع الجزئيات لتلك الكليات على سبيل التفصيل .

وهناك أقوال أخرى أوصلها بعضهم إلى سبعة [١]، وكلها مبنية على اجتهادات وليس هناك دليل واضح يفصل في القضية [٢].

وعمومًا فالقضاء والقدر - بحسب معناهما في اللغة والشرع - بينهما رابط قوي فكل منهما يأتي بمعنى الآخر، ومعاني القضاء ترجع إلى إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه، كما أن معاني القدر ترجع إلى التقدير [٣].

" فهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء ، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء " [٤].

د - مكانة الإيمان بالقدر في الدين ودرجاته : الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان ، لا يصح الإيمان إلا به ، قال تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [٥]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [٦]، وقال ﷺ في حديث جبريل : " الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره " [٧].

**والإيمان بالقدر عند أهل السُّنَّة والجماعة على درجتين تشتمل على أربع مراتب أو أركان هي:**

**الدرجة الأولى :**

**وفيها مرتبتان هما : العلم والكتابة:**

وتعني : أن الله علم كل شيء جملة وتفصيلا ، ما كان وما يكون ،علما أزليًا قبل أن يخلق الخلق ، وأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، كما جاء في الحديث الصحيح قال ﷺ : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض

(١) انظر : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، د/ عبد الرحمن المحمود ، الدار الدولي - الرياض- ط١ ، ١٤١٤هـ ص ٣٠،٣٢ .

(٢) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ص ٣٣ ، وقد ذكر أنه لا فرق بينهما ولا فائدة من هذا الخلاف .

(٣)القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ص ٢٩ .

(٤) معالم السنن للخطابي ٤/ ٣٢٣ .

(٥) سورة القمر ، الآية ٤٩ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٣٨ .

(٧) سبق تخريجه .

بخمسين ألف سنة " [١].

**الدرجة الثانية :**

**وتشتمل على مرتبتين هما : الإرادة والمشيئة ، والخلق والتكوين :**

وتعني : أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه على كل شيء قدير ، وما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا والله خالقه ، بما في ذلك العباد وأفعالهم ، قال سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٢].

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [٣]، وقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٤]، وعلى هذا الاعتقاد كان إجماع السلف[٥].

و- موقف الفرق من القدر : الدرجة الأولى من الإيمان بالقدر - العلم والكتابة - كان ينكرها غلاة القدرية قديماً ، حيث قالوا : إن الأمر أنف ،أي : مستأنف ، ويقصدون بذلك أن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم أزلاً من يطيعه ممن يعصيه، ويعلمه عند حدوثه .

وقد اندثرت هذه الطائفة ، وصار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم والكتابة ، وانحصر الخلاف في مسألة عموم المشيئة والخلق - وهي الدرجة الثانية في الإيمان بالقدر - وهي التي ينكرها القدرية ، واشتهرت بمسألة " خلق أفعال العباد " [٦]، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً .

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر ٤٧٩٧، باب حجاج آدم وموسى، ١/ ١٦٢٣، برقم: ٢٦٥٣. والترمذي في كتاب القدر، ٤/ ٣٩٩.

(٢) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٢ .

(٤) سورة الصافات ، الآية ٩٦ .

(٥) ينظر في ذلك : السُّنَّة لابن أبي عاصم، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣ عام١٤١٣هـ ص١/ ٥٥، والسُّنَّة للإمام عبد الله بن أحمد ٢/ ٣٨٥ ، وشرح أصول أهل السُّنَّة للألكائي ٣/ ٥٨٩ ، والإيمان لابن منده ١/ ١٣٦، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٦٦ ، ٧٨، ٣/ ١١٢ ، وشفاء العليل لابن القيم ص ١١١.

(٦) ينظر : الإيمان لابن تيمية ، ص٣٦٤-٣٦٩ بتصرف .

## المطلب الثاني

## منهجه في إثبات القدر وموقفه من الفرق المخالفة

باستقراء كلام- سيد قطب - في باب القدر نجد أنه تناول قضية " القضاء والقدر " في ضوء المنهج القرآني مستلهما النصوص القرآنية الواضحة الجازمة في شأنها ، مؤكدًا على عدم مواجهة النصوص بمقررات سابقة - عقلية أو شعورية - أو محاكمة النصوص القرآنية إليها ، باعتبار أن النصوص القرآنية جاءت ابتداءً لتنشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها عقيدة البشر وتصوراتهم وحياتهم [١].

**وفيما يلي بيان لمنهج سيد قطب - رحمه الله - في تقريره لقضايا القدر :**

**أولًا : أسباب ضلال الفرق في باب القدر :**

بيّن سيد-رحمه الله - أساس خطأ الفرق الكلامية والفلاسفة في تناولهم لقضايا القدر و أن منشأ انحرافهم وضلالهم فيها يعود إلى عدة أسباب منها :

تقليدهم لمنهج الفلسفة الإغريقية في تناول الموضوع ، وتأثرهم به أكثر من تأثرهم بالمنهج القرآني في علاج هذه القضية، ولذلك ظهر في مباحثهم التعقيد والجفاف والنقص والانحراف [٢].

أنهم تعاملوا معها بالمنطق الذهني ، دون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة والتجربة الواقعية في التعامل معها ." فتصور قضايا القدر يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني - وهي المنطقة الوحيدة التي استخدمتها الفرق الكلامية كلها في تاريخ الفكر الإسلامي ، فلم توفق إلى فهمها [٣].

قياسهم لأقدار الله وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة ، وإعمالهم للعقل فيما

(١) خصائص التصور الإسلامية ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٤ .

وراء حدوده [١].

مواجهتهم للنصوص الشرعية بمقررات عقلية سابقة ، ثم محاكمتهم النصوص إلى مقرراتهم [٢].

عدم جمعهم للنصوص الشرعية المتعلقة بقضايا القدر والتنسيق بين مدلولاتها بل أخذوها فرادى وفق أهواء كل فرقة، ووضعوا بعضها في مواجهة البعض الآخر على سبيل الاحتجاج والجدل [٣].

ونتيجة لذلك فقد ضربت هذه الفرق في التيه في هذه القضية ، ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط .

ولسيد قطب إشارات متفرقة وتصويبات لآراء الفرق المختلفة في هذا الباب، ومن ذلك قوله: " والذين أثاروا قضايا القضاء ، والقدر، والجبر ،والاختيار، وإرادة العبد وكسبه ، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها التقديرية البسيطة " [٤].

وبناءً على ذلك فقد حاول - رحمه الله - تجنب أخطاء الفرق في معالجة قضية القضاء والقدر، حيث لم يعرضها في الصورة التي عرضتها فيها الفرق الكلامية ، وإنما عرضها كما هي في سياق النصوص القرآنية مجتمعة ، فكانت كما يقول :" قضية سهلة ميسرة ، لم تلتوِ عليه " [٥].

### ثانيًا : مراتب القدر وموقف سيد منها :

ذكرنا في التمهيد أن الإيمان بالقدر يشمل على درجتين تشتمل على أربع مراتب هي: العلم، والكتابة ،والإرادة والمشيئة ، والخلق .

وبالنظر إلى ما قرره سيد في هذا الباب نجد أنه يثبت مراتب القدر السابقة ،

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٧١ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٦ ، ٦/ ٣٧٣٠ ، ٣٩٧٩ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٨ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٠ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ١٢٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٦٦ .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١ مع الهامش .

ويقرر عموم التقدير لكل شيء موافقًا في ذلك لأهل السُّنَّة والجماعة وبيان ذلك فيما يلي :

**أ- الدرجة الأولى " درجة العلم والكتابة " :**

أثبت سيد- رحمه الله-علم الله السابق والمحيط وقرر: " أن الله يعلم كل ما يكون قبل أن يكون" (٦).

" وأن علم الله أزليٌ ، ومكشوفٌ له ما الخلائق صائرون إليه ، دون أن يحتاج ذلك إلى بروز العمل منهم ، لأن علم الله شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث " (٧).

يوضح سيد أن في قول الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٨)، صورة لعلم الله الشامل المحيط ، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو، من حي وميت ، ويابس ورطب .

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص يرتاد أفاق المعلوم والمجهول وعالم الغيب وعالم الشهادة ، ومفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو" (٩).

" وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شيء في السماء والأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التي تُنْسي وتمحو، فهو كتاب يضم علم كل شيء ويحتويه " (١٠).

ويرد – سيد– على الجبرية في احتجاجهم بالعلم على الجبر فيقول : " وعلم الله – الأزلي الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث – ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم ، إنما هم كما تنص الآية : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ

(٦) المصدر السابق ١/ ١٣٢ .
(٧) المصدر السابق ٣/ ١٤٠١ بتصرف يسير .
(٨) سورة الأنعام ، الآية ٥٩ .
(٩) في ظلال القرآن ٢/ ١١١١ وما بعدها بتصرف .
(١٠) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٢ .

بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[١] ، فهم لم يفتحوا قلوبهم ليفقهوا، ولم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتكررة ، فعطلوا هذه الأجهزة،ومن ثم عاشوا أضل من الأنعام، فلا عجب أن يجري فيهم قدر الله وفق مشيئته ، فكانوا – كما هم في علم الله القديم – حصب جهنم منذ كانوا "[٢].

وفي ظلال قوله تعالى ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٣]، يقول سيد : " فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته وعنده أصل الكتاب، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه ، فعنه صدر الكتاب كله، وهو المتصرف فيه حسبما تقتضي حكمته، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض "[٤].

ويقول أيضًا : " فكل شيء عند الله بمقدار، وكل أمر مرهون بوقته المرسوم، إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه وكل حادث في إبانه ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه، وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين "[٥].

**ب- الدرجة الثانية " درجة المشيئة والخلق" :**

يقرر سيد–رحمه الله– أن كل ما سوى الله فإنه مخلوق بمشيئته وقدره سبحانه، وأنه لا مكان للصدفة ولا يوجد في الكون ما يخالف مشيئة الله سبحانه، ومن النصوص في هذا الباب ما يلي :

في ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[٦] يقول : " وهنا يتجه البيان إلى الناس كافة .. ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره ، .. فكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة ، لا شيء جُـزاف ، ولا شيء عبث ، ولا شيء مصادفة ، ولا شيء ارتجال، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ كل شيء ،

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠١ بتصرف يسير .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٩٧١ .
(٦) سورة القمر ، الآية ٤٩ .

كل صغير وكل كبير ، كل ناطق وكل صامت ، كل متحرك وكل ساكن ، كل ماض وكل حاضر ، كل معلوم وكل مجهول ، كل شيء خلقناه بقدر.. قدر يحدد حقيقته ، ويحدد صفته ، ويحدد مقداره ، ويحدد زمانه ، ويحدد مكانه ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء ، وتأثيره في كيان هذا الوجود "[١].

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢]. يقرر : " أن مقتضى قدرته أن تنفذ سننه ، وأن يحكم ناموسه، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته .. وقدر الله دائمًا من وراء كل أمر يحدث ، ومن وراء كل حركة وكل نأمة ، وكل انبثاقه في هذا الكون ، .. كل حركة محسوبٌ حسابها في تصميم هذا الكون ، ومقدرٌ لها علتها ونتائجها. .. هناك ناموس ثابت وسنن حتمية .. ومن وراءها إرادة فاعلة ومشيئة طليقة، ووراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمةٌ مدبرةٌ يجري كل شيء في نطاقها ... وكل هذا يقع موافقًا لقدر الله ومشيئته ، ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره "[٣]. " فكل ما يجري في الأرض إنما يجري بمشيئة الله ، ويتحقق بقدر الله "[٤].

" فما يمكن أن يقع في هذا الكون ما يخالف مشيئته سبحانه، فهي مشيئة مطلقة، ومعها القدرة الفاعلة "[٥]. " فالتصور الإسلامي يقوم على اعتقاد أن كل حدث يجري في الكون - ولو أنه يجري وفق الناموس الذي قدره الله - إنما يقع ويتحقق بقدر خاص ينشئه ويبرزه في عالم الواقع ، وأن الأمر القديم بجريان السُّنَّة ، لا يتعارض مع تعلق قدر الله بكل حادث فردي من الأحداث التي تجري وفق هذه السُّنَّة.. إن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كل ما يجري في الكون ابتداءً من نشأته وبروزه إلى كل حركة فيه ، وكل تغيير وكل تعديل، كما ينفي الجبرية الآلية التي تتصور الكون كأنه آلة فرغ صانعها منها وأودعها القوانين التي تتحرك بها ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين التي تصبح بذلك عمياء !!إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر، ثم يثبت الناموس والسُّنَّة

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٣٤٣٦ ، وينظر أيضًا ٣/ ١٢٧٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥١٤ بتصرف يسير .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١١٨٨ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٨٤ ، وينظر أيضًا ٣/ ١٢٧١ .

الجارية ويجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس ولكل مرة تتحقق فيها السُّنَّة ، القدر الذي ينشئ الحركة ، ويحقق السُّنَّة وفق المشيئة الطليقة من وراء السُّنن والنواميس الثابتة .." (١).

**ويقول في المعالم:** " إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله – سبحانه – قوانينه التي يتحرك بها ، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها ، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٣).

إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره ، وقدرًا يحركه ، وناموسًا ينسقه إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره، والقدر الذي يحركه والناموس الذي ينسقه ، بحيث لا يخطر له لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة أو أن يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس "(٤).

" ومشيئة الله وخلقه شاملة لكل ما في الوجود بما في ذلك الإنسان وأفعاله ، والذي يقرأ القرآن يجد في نصوصه سعة مفهوم القدر في التصور الإسلامي ، وبيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط .

في التصور الإسلامي ليست هناك مشكلة في الحقيقة حيث يواجه الأمر ، بمفهوم هذا التصور وإيحائه ، إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيِّفها ، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله ، كل شيء فيه مخلوق بقدر ، وكل حركة تتم فيه بقدر ، ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثون فيها من تغييرات .. وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية الطليقة ، لا يبطل هذا ولا يعطله " (٥).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩٩ بتصرف يسير .
(٢) سورة النحل ، الآية ٤٠ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٢ .
(٤) معالم في الطريق سيد قطب ، ص ١٠٨- ١٠٩ بتصرف يسير .
(٥) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ص ١٢٨ بتصرف يسر ، وينظر أيضًا في ظلال القرآن ١/ ٢٥ .

وسيأتي مزيد بيان لعلاقة المشيئة الإلهية بالمشيئة البشرية عند الحديث عن أفعال العباد.

**ثالثًا: ثمرة الإيمان بالقدر:**

بناءً على ما سبق من علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه لكل ما في الكون، يقرر سيد: "أن على المؤمن أن يرجع الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير" (١).

**ويوضح الفارق بين صاحب العقيدة وغيره:** بـ"أن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله، متعرفٌ إلى مشيئة الله، مطمئن إلى قدر الله، إنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع، ولا يتلقى السراء بالزهو ولا تطير نفسه لهذه أو تلك، ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا، أو ليستجلب كذا، بعد وقوع الأمر وانتهائه!، فمجال التقدير والتدبير والرأي والمشورة، كله قبل الإقدام والحركة، فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير - في حدود علمه، وفي حدود أمر الله ونهيه - فكل ما يقع من النتائج، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم، موقنًا أنه وقع وفقًا لقدر الله وتدبيره وحكمته، وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع، ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله.. فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه الصورة المستقيمة فهو أبدًا مستطارٌ، أبدًا في قلق! أبدًا في "لو" و "لولا" و "يا ليت" و "واأسفاه"!" (٢).

" وفائدة التصور الإسلامي الصحيح للقدر: أنه ينفي عن القلب البلادة، بلادة الآلية والجبرية، ويدعه أبدًا في يقظة ورقابة، كلما حدث حدثٌ وفق سنة الله، وكلما تمت حركة وفق ناموس الله، انتفض هذا القلب، يرى قدر الله المنفذ، ويرى يد الله الفاعلة، ويسبح لله ويذكره ويراقبه، ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه، وهذا تصور يستحيي القلوب، ويستجيش العقول، ويعلقها جميعًا بفاعلية الخالق المتجددة، وبتسبيح البارئ الحاضر في كل لحظة، وفي كل حركة، وفي كل حدث آناء الليل وأطراف النهار" (٣).

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٥٩.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٨.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٩٩.

## المطلب الثالث

# أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية

اختلفت أقوال الفرق في قضية أفعال العباد ومدى العلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية ويمكن عرض الخلاف وسببه باختصار، ومن ثم النظر في موقف سيد قطب- رحمه الله - من هذه القضية وذلك في الفروع الآتية :

### الفرع الأول : سبب الخلاف و أقوال الفرق في مسألة أفعال العباد

#### أولا: سبب خلاف الفرق في مسألة أفعال العباد :

سبب خلاف الفرق في مسألة أفعال العباد هو : أنه يوجد مسألتان متعارضتان في الظاهر :

**الأولى :** ما دلت عليه أدلة الشرع وأيدته البداهة، من أن الإنسان يقدم على ما يفعله مختارًا غير مكره، ولذلك فإنه سيحاسب عليه كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ (١).

**والثانية :** هي ما دل عليه الدليل من أن إرادة الله ومشيئته وخلقه وراء عمل الإنسان كما قالسبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (٢).

وقد جمعت هاتين المسألتين آيةٌ واحدة وهي قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣). حيث ذهب كل فريق إلى ترجيح إحدى المسألتين على الأخرى والأخذ ببعض الأدلة في سبيل دعواه .

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣١ .
(٢) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة النحل ، الآية ٩٣ .

**ثانيًا : أقوال الفرق في مسألة أفعال العباد :**

**أ - المعتزلة :** ذهبت المعتزلة إلى أن إرادة الإنسان هي المتصرفة وحدها في أفعاله، وأنه الخالق لها ، لذا فهو المسؤول عنها والمحاسب عليها ، وأنها خارجة عن إرادة الله وخلقه ، ولا تدخل تحت قدرته ، فالله لا يهدي ضالًا ، ولا يضل مهتديًا ، ويريد ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يريد ، وقالوا بأن العلم الأزلي غير ملزم بل هو صفة كشف عن العلوم ، ولم تنكر المعتزلة أن القدرة التي يخلق بها العبد فعله هي من الله، ولكنها قدرة قبل الفعل صالحة للضدين [١].

وأدلة الكتاب والسُّنَّة متواترة على بطلان هذا المذهب [٢].

**ب - الجبرية :** وقد وقفوا بالطرف المقابل للمعتزلة ، فقالوا : أن إرادة الله تعالى هي المتصرفة وحدها وهو الخالق لأفعال العباد ، وهم لا إرادة لهم ولا اختيار ، بل هم مجبورون عليها، وتنسب إليهم مجازًا وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضًا جبر[٣].

ولا شك أن الجبرية أحق بالذم من المعتزلة ، ومذهبهم أشد فسادًا وأسوأ لازمًا من مذهب المعتزلة لأن فيه إبطال للشرائع ، وإسقاط للأمر والنهي [٤].

**ج - الأشاعرة :** حاول الأشاعرة التوسط بين المعتزلة والجبرية في هذا الباب ومذهبهم في القدر ليس واحدًا ، وقد تطور المذهب من أبي الحسن الأشعري ومرورًا بالباقلاني[٥] ثم الجويني ، والذي استقر عليه مذهبهم – بعد إثبات علم الله تعالى وكتابته وقدرته وإرادته وخلقه – أن العباد لهم قدرة وإرادة في الفعل ، لكنها غير مؤثرة فيه ، بل الله تعالى هو الخالق لها وقدرته هي المؤثرة وحدها [٦].

---

(١) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ص ٣٣٢.

(٢) انظر : شفاء العليل لابن القيم، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، ١/ ٣٣٨ ، والملل والنحل للشهرستاني ،١/ ١١٢، والفرق بين الفرق للبغدادي، ص ٢١١ ، وشفاء العليل ،لابن القيم ،ص ١٠٠ .

(٤) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ١٠٣- ١٠٥ .

(٥) هو: محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني ، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ ، من كبار علماء الكلام ، انتهت اليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة ، سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣هـ ، انظر: شذرات الذهب ٣/ ١٦٨ والأعلام للزركلي ٦/ ١٧٦ .

(٦) انظر :التمهيد للباقلاني ص ٣١٧- ٣٤٧ ، وأصول الدين للبغدادي ص ١٣٣ – ١٣٤ ، والملل والنحل للشهرستاني ص ٨٤- ٨٥.

**والملاحظ على كلامهم** : أنه إذا كانت قدرة الإنسان غير مؤثرة بحال ، فحقيقة مذهبهم هو مذهب الجبرية ، هذا وقد سمى الأشعرية مذهبهم هذا بمذهب الجبر المتوسط [١].

**د ) الماتريدية** : وقد حاولوا أيضًا التوسط إلا أنهم مالوا إلى المعتزلة ، فالبرغم من إقرار الماتريدية بعلم الله وإرادته وخلقه لأفعال العباد [٢]، إلا أنهم قالوا بوجود إرادة جزئية للعبد يوجه بها فعله المترجح بالإرادة الكلية نحو جانب معين ، وهذه هي نقطة الفرق بينهم وبين الأشعرية ، فالإرادة عند الماتريدية تنقسم إلى إرادة كلية هي مخلوقة لله تعالى وهي اسم لصفة الإرادة التي من شأنها ترجيح أحد المقدورين على الآخر ، وإلى إرادة جزئية غير مخلوقة لله - وهي كما فسروها - تعلق تلك الصفة -الإرادة الكلية - بجانبٍ معين ، فالجزئية تأتيها من تعينها بتعين متعلقها [٣].

وهذه الإرادة الجزئية هي من قبيل الحال المتوسط بين الموجود والمعدوم، وقد أقر متأخروا الماتريدية بأن مذهبهم هو مذهب المعتزلة [٤].

**هـ- موقف أهل السُّنَّة والجماعة من أفعال العباد :**

يرى أهل السُّنَّة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شيء ومليكه ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والعبد مأمور بطاعة الله ، منهي عن معصيته ، وكل ذلك بقدر الله تعالى ، ولا حجة لأحد على الله.

**وحاصل كلامهم** : " أن أفعال العباد هي أفعال لهم حقيقة ، ومفعولة ومخلوقة للرب فالعبد فعلها حقيقة ، والله خالقه وخالق ما فعل من القدرة والإرادة وخالق فاعليته" [٥].

---

(١) انظر : موقف البشر تحت سلطان القدر ، لمصطفى صبري ، المطبعة السلفية - القاهرة - ط١ - ١٣٥٢هـ ، ص٥٠ ،٥٦ .

(٢) انظر : التمهيد لقواعد التوحيد ، لمحمود بن زيد اللامشي الماتريدي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م ، ص ٩٧.

(٣) مواقف البشر ، لمصطفى صبري ص ٥٦- ٥٧ .

(٤) صرح بذلك زاهد الكوثري ، وهو ماتريدي . انظر : موقف العقل والعلم من رب العالمين . لمصطفى صبري ، دار إحياء التراث - بيروت، د.ت، ٣/ ٣٩٢ .

(٥) ينظر في ذلك : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٨/ ٤٠٦ ، ٣٨٦ ، وكذا ٨/ ١١٧ ، وشفاء العليل ، لابن القيم ، ص ٢٤٦ ، وشرح العقيدة الطحاوية ، ص٦٤٠.

وأثر قدرة العبد في أفعاله يوضحه ابن القيم بقوله : " الفعل وقع بقدرة الرب خلقًا وتكوينًا ، كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه ، وبقدرة العبد سببًا ومباشرةً ، والله خلق الفعل ، والعبد فعله وباشره ، والقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته "(١).

لهذا نجد أن أهل السُّنَّة والجماعة يأخذون كل دليل صحيح عند القدرية والجبرية، فـ" كل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته بمنزلة حركة المرتعش والأشجار ، وكل دليل صحيح يقيمه القدري ، فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وأنه مريد مختار له حقيقة ، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى ، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته .

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى ، فإنما يدل على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم ، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض ، والحق يصدق بعضه بعضًا ، ويستفاد من أدلة كل فريق بطلان قول الآخر"(٢).

### الفرع الثاني: موقف سيد قطب من قضية أفعال العباد

لسيد قطب – رحمه الله – كلام كثير ومتناثر حول قضية أفعال العباد والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية ومن خلال جمع كلامه نستطيع تصور موقفه من هذه القضية، وذلك كما يأتي:

#### أولا : طلاقة المشيئة الإلهية وعمومها لكل شيء:

يقرر– سيد– طلاقة المشيئة الإلهية وعمومها لكل شيء بما في ذلك مشيئة البشر،

(١) انظر : شفاء العليل لابن القيم، ص ٢٧٣، وينظر كذلك: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٣٨٩ ، ولوامع الأنوار للسفاريني ، ١/ ٣١٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص٦٤٠-٦٤١ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٠-٦٤١ . ومجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ١٣.

وأن للإنسان إرادة ومشيئة لكنها داخله في عموم المشيئة الإلهية :

١ - **يقول :** " إن وراء السنن الإرادة المدبرة والمشيئة الطليقة،والله يخلق ما يشاء ويختار" [١]. " وقوة الإنسان والطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، ومخلوقتان بإرادته ومشيئته " [٢] ." فما يمكن أن يقع في هذا الكون ما يخالف مشيئته -سبحانه- ومن مشيئته سبحانه أن يكون هذا الكائن البشري كما هو - بتكوينه هذا واستعداداته للهدى وللضلال ، وأن يكون موكولاً إلى نفسه في اختيار طريقه إلى الهدى وإلى الضلال ، ومن ثم فكل ما ينشأ عن هذا التكوين واتجاهاته داخل في إطار المشيئة ، وواقع وفق هذه المشيئة "[٣].

٢- **ويقول أيضًا :** " وقدر الله دائمًا من وراء كل أمر يحدث ، ومن وراء كل حركة وكل نأمة وكل انبثاقة في هذا الكون كله ،.. لم يقع مصادفة ولا جزافًا ، ولم يقع عبثًا ولا سدى ، فكل حركة محسوب حسابها في تصميم هذا الكون ، ومقدر لها علتها ونتائجها...

إن التصور الإسلامي يبلغ من الشمول والتوازن في هذه القضية ما لا يبلغه أي تصور آخر في تاريخ البشرية ، هناك ناموس ثابت وسنن حتمية ، وهناك وراء الناموس الثابت والسنن الحتمية إرادة فاعلة ومشيئة طليقة ، وهناك وراء الناموس والسنن والإرادة والمشيئة حكمة فريدة يجري كل شيء في نطاقها ، والناموس يتحكم والسنن تجري في كل شيء - ومن بينها الإنسان - والإنسان يتعرض لهذه السنن بحركاته الإرادية المختارة ، وبفعله الذي ينشئه حسب تفكيره وتدبيره، فتنطبق عليه وتؤثر فيه ، ولكن هذا كله يقع موافقًا لقدر الله ومشيئته ، ويحقق في الوقت ذاته حكمته وتقديره .. وإرادة الإنسان وتفكيره وحركته وفاعليته هي جزء من سنن الله وناموسه يفعل بها ما يفعل ، ويحقق بها ما يحقق في نطاق قدره وتدبيره ، فليس شيء منها خارجًا على السنن والناموس ولا مقابلًا لها ومناهضًا لفعلها -فالإنسان ليس ندًا لله ، ولا عدوًا له ، والله - سبحانه- حين وهب الإنسان كينونته وفكره وإرادته وتقديره وتدبيره وفاعليته في الأرض ، لم يجعل شيئًا من هذا كله متعارضًا

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٣ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥ ، وينظر أيضًا ٢/ ٨٣٧.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٨٤ ، وينظر أيضًا ٦/ ٣٧٨٧ .

مع سننه – سبحانه – ولا مناهضًا لمشيئته، ولا خارجًا كذلك عن الحكمة الأخيرة وراء قدره في هذا الكون الكبير، ولكن جعل من سننه وقدره أن يقدر الإنسان ويدبر، وأن يتحركَ ويؤثر، وأن يتعرض لسنة الله فتنطبق عليه ، وأن يلقى جزاء هذا التعرض كاملًا من لذة وألم ، وراحة وتعب ، وسعادة وشقاوة ، وأن يتحقق من وراء هذا التعرض ونتيجته ، قدر الله المحيط بكل شيء في تناسق وتوازن "(١).

٣ ) **في ظلال قوله تعالى:** ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾(٢) ، يقول سيد: " فهما يريدان الإصلاح، والله يستجيب لهما ويوفق، وهذه هي الصلة بين قلوب الناس وسعيهم ، ومشيئته الله وقدره، إن قدر الله هو الذي يحقق ما يقع في حياة الناس ، ولكن الناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا، وبقدر الله – بعد ذلك – يكون ما يكون "(٣).

" فإرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة ، وقدره الفاعل ، والله بكل شيء محيط ، وإرادة الإنسان وحركته – في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل – يتعاملان مع الوجود كله ، ويتأثران ويؤثران فيه "، " وقد قضت مشيئة الله ، وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السُّنَّة بسلوكهم، والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾(٤)، (٥).

٤ ) **في ظلال قوله تعالى :** ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٦)، يقول سيد: "وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التي يرجع إليها كل أمر ، فإعطاؤهم حرية الاختيار، ويُسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة المحيطة بكل شيء كان أو يكون ، وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيماني ، وشموله للحقيقة

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥١٤ ، بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ١/ ٥٠٣، ٣/ ١٥٣٥– ١٥٣٦.
(٢) سورة النساء ، الآية ٣٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٦ ، ٦٥٧ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ١١ .
(٥) في ظلال القرآن ،٣/ ١٣٣٦ ، ٤/ ٢٠٤٩ .
(٦) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .

الكبيرة : حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله ، وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير ، شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون، فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان.

لا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاته ، وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق "[1].

**ثانيًا : التوازن بين مجال المشيئة الإلهية ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة :**

يقول سيد : " والعلاقة بين المشيئة الإلهية والمشيئة البشرية هي القضية المشهورة في تاريخ الجدل في العالم كله ، وفي المعتقدات كلها ، وفي الفلسفات والوثنيات كذلك باسم قضية " القضاء والقدر " أو " الجبر والاختيار " ، والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة – كما أسلفنا – ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها ولا معها ، وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية ، ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها ، وهو دور ضخم يعطي للإنسان مركزًا ممتازًا في نظام الكون كله ، ويمنحه مجالا هائلا للعمل والفاعلية والتأثير ، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية ، وتفردها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة ، وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة ، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداءً وإرادته وعمله وحركته ونشاطه داخل في نطاق المشيئة الطليقة ، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه ...

ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[2]، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]، ﴿ وَإِن

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٣- ٣٨٤٤ .
(٢) سورة الحديد ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٥١ .

تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (١)...

**ويقرأ كذلك في الجانب الآخر :** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢)، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ (٣)، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (٤)..

ثم يقرأ بعد هذا وذاك : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (٥)، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٦)، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧).

يقرأ الإنسان أمثال هذه المجموعات المنوعة الثلاثة، فيدرك منها سعة مفهوم "القدر" في التصور الإسلامي ، مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط .

لقد ضربت الفلسفات والعقائد المحرفة في التيه – في هذه القضية – ولم تعد إلا بالحيرة والتخليط ، بما في ذلك من خاضوا في هذه القضية من متكلمي المسلمين أنفسهم ، ذلك أنهم قلدوا منهج الفلسفة الإغريقية ، أكثر مما تأثروا بالمنهج الإسلامي في علاج هذه القضية .

في التصور الإسلامي ليست هناك " مشكلة " في الحقيقة ، حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه – إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧٨ ، وينظر أيضًا الآية ١٥٤ آل عمران .
(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .
(٣) سورة القيامة ، الآيتان ١٤، ١٥ .
(٤) سورة الشمس ، الآيات ٧– ١٠.
(٥) سورة المدثر ، الآيات ٥٤– ٥٦ .
(٦) سورة الإنسان ، الآيات ٢٩– ٣٠ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٦٥– ١٦٦ .

ما ينشأ ، وما يخلق من الأحداث والأشياء والأحياء ، وهو الذي يصرف حياة الناس ويكيفها ، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله ، كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر ، لكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثون فيها من تغييرات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة ، لا يبطل هذا ولا يعطله ، فالأمران يجيئان مجتمعين أحيانًا في النص القرآني الواحد ، كما رأينا في المجموعة الثالثة في هذه النماذج، ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض ، حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى ، وحركة الإنسان في نطاقها ، إلا أن المنهج الصحيح هو ألا نستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة بل نستمدها من نصوص القرآن .. فالذي قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ، هو الذي قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، وهو قال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، وهو قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] ، وهو قال في الوقت نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

ولا بد إذن –وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه ، وشمول مشيئته وقدره– من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله ، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل ، يقوم عليه التكليف والجزاء ، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة ، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث "[3].

### ثالثًا : حقيقة أفعال العباد :

ينتقد سيد قطب – رحمه الله – أولًا : الذين خاضوا في قضايا القدر ومنها أفعال

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥ .
(٢) سورة فصلت ، الآية ٤٦.
(٣) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب ، ص ١٢٦ – ١٢٩ ، بتصرف يسير ، وينظر أيضًا مقومات التصور ص٤٨، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٨ .

العباد بعيدًا عن المنهج القرآني فيقول : " والذين أثاروا قضايا القضاء القدر، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه ، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه الحقيقة في صورتها الواقعية التقديرية البسيطة ، التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ، وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلق الله عليها، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ، وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والآخر يجري بها قدر الله أيضًا قدرالله فتكون ، وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله ، ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به ، وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء ! "[1].

**أما نظرة - سيد - إلى قضية أفعال العباد فأسوق هنا نصًا من كلامه يبين ذلك:**

ففي ظلال قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2]، يقول - رحمه الله -: " إن القضية التي تتناولها هذه الآيات ، هي جانب من قضية كبيرة ، القضية المعروفة في تاريخ الجدل والفلسفة في العالم كله باسم " قضية القضاء والقدر " أو " الجبر والاختيار " وقدر وردت في أثناء حكاية قول ذلك الفريق من الناس ، ثم في الرد عليهم وتصحيح تصورهم .

والقرآن يتناولها ببساطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض فلنعرضها كما وردت وكما رد عليها القرآن الكريم: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[3].

إن الله هو الفاعل الأول والفاعل الواحد، لكل ما يقع في الكون، وما يقع للناس، وما يقع من الناس، فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا- ولكن تحقق

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٦٦ ، وينظر أيضًا : خصائص التصور ص ١٢٨ .
(٢) سورة النساء ، الآيات ٧٨- ٧٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٧٨ .

الفعل- أي فعل- لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر.

فنسبة إنشاء الحسنة وإنشاء السيئة وإيقاعها بهم للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم - نسبة غير حقيقة - تدل على عدم فقههم لشيء ما في هذا الموضوع.

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير، بالوسائل التي أرشد الله إلى أنها تحقق الخير، ولكن تحقق الخير فعلًا يتم بإرادة الله وقدره، لأنه ليست هناك قدرة - غير قدرة الله - تنشئ الأشياء والأحداث، وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع وإذن يكون تحقق الخير - بوسائله التي اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده - عملًا من أعمال القدرة الإلهية. وإن الإنسان قد يتجه إلى تحقيق السوء، أو يفعل ما من شأنه إيقاع السوء، ولكن وقوع السوء فعلًا، ووجوده أصلًا لا يتم إلا بقدرة الله وقدر الله، لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء والأحداث في هذا الكون غير قدرة الله. وفي الحالتين يكون وجود الحدث وتحققه من عند الله، وهذا ما تقرره الآية الأولى.

أما الآية الثانية: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ فإنها تقرر حقيقة أخرى، ليست داخلة ولا متداخلة مع مجال الحقيقة الأولى، إنها في وادٍ آخر، والنظرة فيها في زاوية أخرى:

إن الله - سبحانه - قد سنَّ منهجًا وشرع طريقًا، ودل على الخير وحذر من الشر، فحين يتبع الإنسان هذا المنهج، ويسير في هذا الطريق، ويحاول الخير، ويحذر الشر، فإن الله يعينه على الهدى كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1]، ويظفر الإنسان بالحسنة، ولا يهم أن تكون من الظواهر التي يحسبها الناس من الخارج كسبًا، إنما هي الحسنة فعلًا في ميزان الله تعالى، وتكون من عند الله، لأن الله هو الذي سن المنهج وشرح الطريق ودل على الخير، وحذر من الشر.

وحين لا يتبع الإنسان منهج الله الذي سنه، ولا يسلك طريقه الذي شرعه، ولا يحاول الخير الذي دل عليه، ولا يحذر من الشر الذي حذره منه، حينئذ تصيبه السيئة، السيئة الحقيقة، سواء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا، ويكون هذا من

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

عند نفسه لأنه هو الذي لم يتبع منهج الله وطريقه .

وهذا معنى غير المعنى الأول ، ومجال غير المجال الأول ، كما هو واضح فيما نحسب ، ولا يغير هذا من الحقيقة الأولى شيئًا ، وهي أن تحقق الحسنة ، وتحقق السيئة وقوعهما لا يتم إلا بقدرة الله وقدره ، لأنه المنشئ لكل ما ينشأ ، المحدث لكل ما يحدث ، الخالق لكل ما يكون ، أيًا كانت ملابسة إرادة الناس وعملهم في هذا الذي يحدث وهذا الذي يكون "[1]. " والقضية التي تمثل هذه النصوص جانبًا منها، أو التي تذكر بها، وهي قضية " الجبر والاختيار" وإلى أي حد تعمل إرادة الإنسان فيما يحدث منه أو يحدث له ؟ وكيف تكون له إرادة يقوم عليها الحساب والجزاء، بينما إرادة الله هي المنشئة لكل ما يحدث، ومنه إرادة الإنسان نفسه واتجاهه وعمله .. إلى آخر هذه القضية .

فالنصوص القرآنية تقول : إن كل ما يحدث بإرادة الله وقدره ، وتقول في الوقت ذاته ، إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسب على إرادته وعمله ، والقرآن كله كلام الله ولن يعارض بعضه بعضًا ، فلا بد إذن أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان وعمله يكفي لحسابه عليه وجزائه : دون أن يتعارض هذا مع مجال الإرادة الربانية والقدر الإلهي، كيف ؟ هذا ما لا سبيل لبيانه ، لأن العقل البشري غير كفء لإدراك عمل الله ! "[2].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٨- ٧١٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٧١٩ الهامش ( ١ ) ، وينظر أيضًا : خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩ .

## المطلب الرابع
# قضايا متعلقة بالقدر

### الفرع الأول : الهدى والضلال

وهذه المسألة هي قلب أبواب القدر ومسائله ، وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم، وكتبه المنزلة عليهم على أن الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن الهدى والضلال بيده لا بيد العباد ، وأن العبد هو الضال أو المهتدي ، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه [١].

**وأهل السُّنَّة والجماعة على أن الهداية مراتب:**

**أولها : الهداية العامة** : وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيم حياتها، وهذه أعم المراتب ويشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[٢].

**والثانية : هداية البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده** ، وهذه أخص من الأولى لأنها تتعلق بالمكلفين ، ويشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[٣].

**الثالثة : وهي هداية التوفيق** ، وهي المستلزمة للاهتداء ، ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى [٤] وإليها يشير قوله تعالى ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾[٥] ، وقوله ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦]، والأخيرة هي التي حصل فيها الخلاف، وأنكرها المعتزلة [٧].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ، ص ١١٧ .
(٢) سورة الأعلى ، الآية ٣ .
(٣) سورة فصلت ، الآية ١٧
(٤) شفاء العليل لابن القيم ، ص ١١٧ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ١٧ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية ٣٩ .
(٧) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، ص٣٥٧ . وشفاء العليل لابن القيم ، ص١٤١ .

أما سيد قطب - رحمه الله - فيقرر ما قرره أهل السُّنَّة والجماعة في هذه المسألة بناءً على ما جاء في نصوص الشرع من أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويمكن بيان موقفه من مسألة الهدى والضلال فيما يأتي :

**أولًا:** قرر سيد قطب - رحمه الله - مجموعة من الحقائق الأساسية في باب الهدي والضلال يرتكز عليها فهم المسألة وهي:

" أن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله - ولو كان هو رسول الله ﷺ إنه من أمر الله وحده ، فهذه القلوب من صنعه ، ولا يحكمها غيره، ولا يصرفها سواه ، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله ، وما على الرسول إلا البلاغ ، فأما الهدى فهو بيد الله ، يعطيه من يشاء" ، " وأن الهدى والضلال كلاهما إنما يتم بقدر الله ، وأن هؤلاء وهؤلاء في قبضته وسلطانه وفي إطار مشيئته وقدره " (١).

" أن الله -عز وجل- خلق الإنسان باستعداد مزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن اقتضاء ولزوم ، وأنه سبحانه أودع في الإنسان الفطرة ، وأعطاه العقل المميز للهدى والضلال ثم أرسل الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل " (٢).

أن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى أو اتجاهه إلى الضلال ، كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته ، فهذا الاتجاه وذاك مخلوق ابتداءً بمشيئة الله ، والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك ، فالمشيئة فاعلة ومطلقة ،و " كل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة ... فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا لاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك في حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة " (٣).

" أن قدر الله يجري بهداية من يجاهد للهدى " (٤)، " فالهدى بيد الله ، يعطيه من

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣١٤، ٣/ ١١٨٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٨١، ٣/ ١٤٠٠، ١٨٢١، ٦/ ٣٧٥٩ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٨١، ٦/ ٣٧٥٩ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٠٠ .

يشاءممن يعلم – سبحانه – أنه يستحق الهدى ويسعى إليه "[١] ، " وقد تكفل الله بهداية من يجتهد ، ويرغب بجدٍ في الهدى " " فإذا أحسن استخدم مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك ، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات بينات فإنه يؤمن ويهتدي "[٢] .

" كما تكفل سبحانه بألا يُضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقونه قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٤] وليس وراء ذلك عدل ، وليس بعد ذلك رحمة في معاملة العبيد "[٥].

" وأن قدر الله يجري أيضًا بإضلال من أعرض عن دلائل الهدى وآياته "[٦] "فإذا عطل الإنسان مواهبه، وأغلق مداركه وسترها عن دلائل الإيمان، فإنه يقسو قلبه ، ويستغلق عقله ، وينتهي بذلك إلى التكذيب والجحود ، وإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء "[٧] ، " ويستوي في ذلك الجزاء الدنيوي كالطبع على القلوب بسبب استهتارهم بالإنذار "[٨]، " أو فسقهم وزيادة ضلالهم "[٩] "أو العذاب الأخروي " فالله تعالى جعل للهدى والضلال سننًا ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون ، ويتعرضون لعواقبها ، من هذه السُنن أن الإنسان مهيأ للهدى والضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال .

فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ، وهذا هو المهتدي حقًا لأنه اتبع هدى الله، والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣١٤

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١١٥ .

(٥) مقومات التصور الإسلامي ، ص ٢٧٧ .

(٦) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٥١ .

(٧) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١ .

(٨) المصدر السابق ١/ ٤٢ .

(٩) المصدر السابق ١/ ٥١ / ٧٣١ .

لا يعصمهم أحد من عذاب الله ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ ويحشرهم يوم القيامة في صوره مهينة مزعجة ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ يتكفأون ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام . جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى ، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ في النهاية ، لا تبرد ولا تفتر[١].

٥- في ظلال قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢]، يقول سيد: " والله يهدي من يجاهد ليهتدي، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾[٣].

وكما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٤]، وكما قال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[٥].

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه، ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها ، وذلك كما جاء في الآية التالية في السياق: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[٦]،وقوله تعالى:﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[٧]، وقوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[٨].

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٥١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٨ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ١١ .
(٥) سورة الشمس ، الآية ٧-١٠ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .
(٧) سورة البقرة ، الآية ١٠ .
(٨) سورة النساء، الآية ١٦٨-١٦٩ .

ومن مراجعة مجموعة النصوص الذي تذكر الهدى والضلال والتنسيق بين مدلولاتها جميعًا يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية والذي آثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عمومًا.

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال، وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها، ومع إعطائه العقل المميز للهدى والضلال، ومع إرسال الرسل بالبيان لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل، ولكن يبقى بعد ذلك كله الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره.

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى، وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل، وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية بالهدى.

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه، وما كان الأمر ليكون إلا أن الله شاءه هكذا، وما كان لشيء ليقع إلا أن يوقعه، قدر الله، فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله لينشئ الأحداث، وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضًا. وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل.

وفي هذا النص الذي يواجهنا هنا: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ يقرر أن من يهديه الله – وفق سنته التي صورناها في الفقرة السابقة– فهو المهتدي حقًا، الواصل يقينًا الذي يعرف الطريق ويسير على الصراط

، ويصل إلى الفلاح في الآخرة ، وأن الذي يضله الله- وفق سنته تلك - فهو الخاسر الذي خسر كل شيء ، ولم يربح شيئًا مهما ملك، ومهما أخذ، فكل ذلك هباءً..

ويؤيد ما ذهبنا إليه في فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾، إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ، وهم مهيأون لها! فما بالهم كذلك ؟ هناك اعتباران :

**الاعتبار الأول** : أنه مكشوف لعلم الله الأزلي أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم، وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم، فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث .

**الاعتبار الثاني** : أن هذا العلم الأزلي- الذي لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث - ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم، إنما هم كما تنص الآية : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ ﴾ فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا .. ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود ، وهي الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية ، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة ، لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبوها ولم يستخدموها ، لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون.. ثم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله إليها ، وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا ، فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حصب جهنم منذ كانوا ! " [1].

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٠- ١٤٠١ .

أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] ، يقول سيد أيضًا: " من يقدر الله له الهداية وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فيتسع له، ويستقبله في يسر ورغبة ، ويتفاعل معه، ويطمئن إليه ، ويستروح به ويستريح له، ومن يقدر له الضلال وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ، ويغلق فطرته عنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله...

وتصور الحقيقة التي يقرر هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم في النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله – سبحانه – واتجاهات البشر ، وما يصيبهم من الهدى والضلال، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء أو ثواب وعقاب ، إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ! .

وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي، وبخاصة بين المعتزلة وأهل السُّنَّة والمرجئة – أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة – وكل القضايا والتعبيرات عنها، موسوعة بطابع المنطق الذهني.

إن قصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ، وكذلك يقتضي التعامل مع " الواقع الفعلي " لا مع " القضايا الذهنية " فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع ، وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره ، وبين إرادة الإنسان وعمله في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله.

**فإذا قيل:** إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعًا إلى الهدى أو الضلال [2]، لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية.

**وإذا قيل :** إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله [3]، لم تكن هذه هي الحقيقة

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥ .
(٢) وهذا قول الجبرية .
(٣) وهذا قول المعتزلة .

الفعلية .

إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة – وغيبية كذلك – بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم ...

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية، إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحًا له، هو من صنع الله قطعًا ، فالانشراح حدثٌ لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه ، والذي تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقًا وتقبضًا وعسرًا ، هو من صنع الله قطعًا ، لأنه حدثٌ لا يتم وقوعه الفعلي إلا بقدر من الله يخلقه ويجري به كذلك، وكلاهما من إرادة الله بالعبد ، ولكنها ليست إرادة القهر، إنما هي الإرادة التي أنشأت السُّنَّة الجارية النافذة من أن يبتلي هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة ، وأن يجري قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى والضلال...

وحين توضع قضية ذهنية في مواجهة قضية ذهنية ، وحين يتعامل معها بدون استصحاب الملامسة الباطنية الحقيقية والتجربة الواقعية ، فلا يمكن أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . وهذا ما وقع في الجدل الإسلامي وفي غيره كذلك "[1].

**ويقول سيد :** " وقد جرينا على هذه القاعدة في تفسير آيات المشيئة، فلم تلتوِ علينا حتى الآنو على الله التوفيق "[2].

ومن خلال هذه النصوص التي ذكرناها عن سيد في مسألة الهدى والضلال يتبين لنا خلاصة رأيه في المسألة، وهو في هذه القضية موافق لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة.

## الفرع الثاني : القدر والأسباب

إن الإيمان بالقضاء والقدر يشمل اعتقاد أن الأمور جميعها تسير وفق ما سبق

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٣ ، ١٢٠٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٨٢١ الهامش١.

فيه القضاء وجرت به المقادير، ولكن هذا لا يعني أن يترك العبد العمل والأخذ بالأسباب فقد قضت حكمة الله ومشيئته تعلق الأسباب بمسبباتها، وارتباطها لها، وبقائها عليها، والأسباب نفسها مما قضي وقدر.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعضهم قوله: " الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب في الكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا توجب حصول المسبب، فنزول المطر لا يكفي لحصول النبات، بل لا بد من ريح مربية بإذن الله، ولا بد من صرف الانتفاء عنه، فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك الولد، لا يوجد بمجرد الإنزال في الفرج بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر ما يتم به خلق من الشروط وزوال الموانع" [(١)].

والعبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر على ذلك سائر الحيوان"[(٢)]، وهكذا تفهم العلاقة بين القدر والأسباب.

**موقف سيد ـ رحمه الله ـ من مسألة العلاقة بين القدر والأسباب:**

يربط سيد قطب -رحمه الله- بين القدر والأسباب ربطًا قويًا، حتى جعل الأسباب أو السنن داخلة في مفهوم القدر – الواسع – ويقرر أن قدر الله ومشيئته عامة وهي وراء الأسباب، وأن الأسباب التي تعارف الناس عليها ليست هي التي تنشئ النتائج، إنما قدر الله ومشيئته وراء ذلك كله.

١- يقول: " وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[(٣)].. وكل أمر لحكمة ولكنها قد تغيب عن النظرة الإنسانية .. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٧٠.
(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٥١ – ٥٢ بتصرف يسير.
(٣) سورة القمر الآية ٤٩.

آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها ، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج ، كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)، والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها ، والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها" (٣).

٢- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٤). يقول سيد : " فبأذن الله تفعل الأسباب فعلها ، وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها ،وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها ، في ضمير المؤمن تمامًا ، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام . أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق ، ولكن هذا الاحتراف لا يكون إلا بإذن الله ، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق ، وأودع يدك خاصية الاحتراق بها ، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها ، كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - .

وكذلك السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه ، ينشئ هذا الأثر بإذن الله ، وهو قار على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها ، وهكذا بقية ما تتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار، كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين شاء"(٥). "إن إرادة الله جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسُننًا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته ،.. وإرادة الله هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب " (٦).

" والله يرد الأمر كله إليه ، ويصحح عقيدة المسلم وتصوره ، فاستجابة الله

---

(١) سورة الطلاق ، الآية ١ .
(٢) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٣ .وينظر أيضًا :خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب ص ٩٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .
(٥) في ظلال القرآن ، ١/ ٩٦ ، وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٦٣ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٨ بتصرف .

لاستغاثة المؤمنين في بدر وإمدادهم لهم بالملائكة ، كل ذلك ليس إلا بشرى لتطمئن به القلوب ، أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ، ليفهم المسلمون أنه ليس هناك سبب ينشئ نتيجة ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلًا "[١].

" وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي، وعلى تنقيتها من كل شائبة، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات أن تكون هي الفاعلة، لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط.. وبمثل هذه التوجهات استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين على نحو بديع هادئ عميق مستنير .

عرفوا أن الله هو الفاعل - وحده - وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف، فاستيقنوا الحقيقة وأطاعوا الأمر، في توازن شعوري وحركي عجيب "[٢].

٣- ويقول أيضًا : " فالأمر له - سبحانه - من قبل ومن بعد .. لا مقيد لمشيئته، والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسر الأسباب ، فلا تعارض بين تعليق الشيء بالمشيئة ، ووجود الأسباب والنواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادره عن المشيئة الطليقة ، وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تختلف ، وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات ، .. والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال ، فهي ترد الأمر كله إلى الله ، ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع ، أما أن تتحقق تلك النتائج فعلًا أو لا تتحقق فليس داخلًا في التكليف ، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله ، وقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله ﷺ ودخل يصلي قائلًا: " توكلت على الله " فقال له الرسول ﷺ : " اعقلها وتوكل "[٣]، " فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٨٣ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٠ .
(٣) الحديث رواه الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٨٠، والحاكم ٣/ ٦٢٣، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٤٢ برقم: ١٠٦١، صحيح سنن الترمذي ٢/ ٦١٠.

بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله" [١].

وفي مقومات التصور الإسلامي يقول سيد: " والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة - في جملتها - وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين على إدراك بعض هذه النواميس، والتعامل معها .. وفي تصور المسلم لا يقوم " السبب " ولا العادة ، ولا المألوف من النواميس ، حاجزًا بين العبد وإرادة الله به ، وبالوجود كله من حوله ، في كل حالة وفي كل لحظة ، فالمشيئة الإلهية في تصوره - كما هي في الحقيقة - طليقة من وراء تلك النواميس ، ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة ، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس لأنه مأمور أن يأخذ بها - وأخذه بها عبادة وطاعة - ويتعامل مع سُنَّة الله ، وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله ، لا بسبب حتميتها على الله ، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها ، ولكن الله أراد ألا يبدلها ، وجرى قدره باطرادها - إلا أن يشاء ذلك - مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه ، وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تمامًا ويتميز عن كل تصور آخر... فهو لا ينتهي إلى إهمال الأسباب ، أو إقامة النشاط بلا قواعد ، ولا إلى جهل النواميس وإهمال التعامل معها ، كما أنه لا ينتهي إلى إغلاق الأبواب دون مشيئة الله الطليقة ، وقدره الجديد ، أمام واقع الأسباب والنواميس ، ولا يختنق بالجبريات الآلية والحتميات الطبيعية والتاريخية " [٢]، " وبذلك تسقط كل المقولات التي تنسب الآثار نسبة مباشرة إلى غير مشيئة الله وقدره " [٣]، " فالمسلم يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها ، ويعمل وفق السُّنَّة ، لأنه مأمور بمراعاتها ، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج ، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب ، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب ، بعد أداء واجبه من الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب ، طاعةً لأمر الله " [٤].

## الفرع الثالث : الاحتجاج بالقدر:

إذا كان الإيمان بالقدر واجبًا وركنًا من أركان الإيمان، فإنه لا يجوز الاحتجاج

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥٨ بتصرف يسير .
(٢) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٦٤
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٧ .
(٤) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ١٢٥ .

بالقدرعلى ترك العمل المشروع ، أو على عمل الممنوع .

فأهل السُّنَّة والجماعة يؤمنون بالقدر ولا يحتجون به. وأول من احتج بالقدر إبليس[١]، ومن بعده المشركون كما أخبر الله عنهم ، حيث تشبثوا بالقدر والمشيئة دفعًا لما هم عليه من الشرك والكفر ، ظنًا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله ، فأبطل الله زعمهم .

ثم جاء بعدهم الجبرية ومن نهج نهجهم من الجهمية، فاحتجوا بالقدر على المعاصي وفتحوا باب شر مستطير للدعوة إلى الفسوق والفجور مستدلين ببعض الآيات والأحاديث، التيّ أساءوا فهمها[٢].

## موقف سيد قطب ـ رحمه الله – من الاحتجاج بالقدر:

وقف سيد قطب عند هذه المسألة وقرر ما قرره القرآن الكريم وما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من أن للعبد مشيئته وقدرته، وأنها خاضعة لمشيئة الله وقدرته، وأنه لا يجوز الاحتجاج بالقدرعلى المعاصي .

**يقول - رحمه الله - :** " والذين يحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم ، وعلى قضائه فيهم ، إنما يغالطون في هذه الإحالة ، والله سبحانه يجبههم بالحق ، وهو يحكي أقوالهم في هذا الشأن ويسفهها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٣]، فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم وعلى أن الضلالة إنما حققت عليهم- بعد النذارة – بفعلهم "[٤].

وعند الآيات التي ذكرت احتجاج المشركين بالقدرعلى ضلالهم ، بين- رحمه الله – الموقف الحق في ذلك ، ويمكننا استعراض كلامه على الآيات فيما يأتي :

---

(١) انظر : سورة الحجر ،الآية ٣٩ .

(٢) لبيان مذهبهم الفاسد ينظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١١، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ٨٧ ، ومجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/ ٩٩- ١٠٣ ، وشفاء الغليل لابن القيم ص ٢٨ . وفتح الباري لابن حجر ١١/ ٥٠٩- ٥١٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٣٥ .

(٤) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٦٦ .

في ظلال قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، يقول سيد : " وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضيق الخناق عليهم ، وسد الذرائع في وجوههم يواجه مهربهم الأخير الذي يحيلون عليهم شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم ، إنهم يقولون : إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال ، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء... وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السُّنَّة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة.. وتدخلت الفلسفة الإغريقية، والمنطق الإغريقي، واللاهوت المسيحي في هذا الجدل، فتعقد تعقيدًا لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية، ولو أخذ بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتد هذا الجدل، وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه .

ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه ، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة :﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ ، فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل، يحيلون هـذا كله إلى مشيئة الله بهم، فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة .

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقـد ذاق المكذبـون من قبلهم بأس الله ، وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ ،وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر ، وتوقظ من الغفلة ، وتوجه إلى العبرة .

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر ،إن الله أمرهم بأوامر ، ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقنًا ، فأما مشيئة الله

(١) سورة الأنعام ، الآيات ١٤٨-١٤٩ .

فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينًا فكيف يحيلون عليه : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ إن لله أوامر ونواهي معلومة علمًا قطعيًا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ، ليمضوا وراء الحدس والخرص في وادٍ لا يعلمونه ؟ .

هذا هو فصل القول في هذه القضية .. إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه ، إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ليكيفوا أنفسهم على حسبها ، وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام ، وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذٍ – في واقعها العملي – يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته .

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداءً بطبيعة لا تعرف إلا الهدى أو يقهرهم على الهدى ، أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر ، ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا : شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته ، وجرت سنته بما شاء. ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، قضية واضحة ، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري ، فأما المعاظلة فيها والمجادلة فيها غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي ، ولم ينته الجدل فيها في أي فلسفة أو أي لاهوتٍ إلى نتيجة مريحة، لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها .

إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها كذلك، الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعامل ، والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن ، والحقيقة التي وراء هذا المدى لا بد أن تتناول بمنهج آخر هو منهج التذوق الفعلي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي ، ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديمًا وحديثًا .

ولقد جاء هذا الدين ليحقق واقعًا عمليًا ، تحدده أوامر ونواهٍ واضحة ، فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بغير دليلٍ ، ومضيعة للجهد

الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود " [١]. " فعلم الله الأزلي ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال " [٢].

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٣]، يقول سيد : " إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة.. إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله – في زعمهم – ألا يفعلوا شيئًا من هذا لمنعهم من فعله .

وهذا وهمٌ وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية، وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها في الحياة..

فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ وحده ، فقاموا به وأدوه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فهذا أمره وهذه إرادته لعباده .

والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خِلقةً من القدرة عليه ، أو دفعهم قسرًا إلى مخالفته ، وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين ﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم ، حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٦- ١٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٠١ .
(٣) سورة النحل ، الآيات ٣٥- ٣٦ .

به أحد الاتجاهين ، بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت أناء الليل وأطراف النهار، فوضع لهذا العقل ميزانًا ثابتًا في شرائعه التي جاءت به رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء،ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان، ففريق استجاب ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ ﴾وفريق شرد في طريق الضلال ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ .

وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج عن مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسرًا على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه بعدما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفي الآفاق .

وكذلك ينفي القرآن الكريم بهذا النص ، وَهْمَ الإجبار الذي لوح به المشركون، والذي يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين .

والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة ، فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر، ويعاقب المذنبين أحيانًا في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم ، فلا مجال بعد هذا لأن يقال : إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم ، وهذه هي إرادة الله ، وكل ما يصدر عنهم من خيرٍ أو شرٍ من هدىً أو ضلالٍ ، يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذي فصلناه " [1].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [2]، يقول سيد :" إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة ، فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راضٍ عن عبادتهم الملائكة ، ولو لم يكن راضيًا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢١٧٠- ٢١٧١ .
(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٠ .

من ذلك منعًا !.

وهذا القول احتيالٌ على الحقيقة ، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله ، هذا حق، ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى واختيار الضلال ، وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال، وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلًا للهدى أو الضلال .

وحين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطًا، فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة -ومن أين يأتيهم اليقين؟- ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ويتبعون الأوهام والظنون ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ يستندون إليه في دعواهم .. ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل !!.

وهكذا يأخذ عليهم الطريق من هذه الناحية ، ويوحي إليهم كذلك أن العقائد لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يرتكن فيها إلى ظنٍ أو وهمٍ ، إنما تستقي من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه " [١].

## الفرع الرابع: التكليف بما لا يطاق

مسألة التكليف بما لا يطاق من المسائل المتفرعة عن الاستطاعة ، لأن الطاقة هي الاستطاعة [٢]، وهي مسألة وقع فيها الخلاف بين المتكلمين أنفسهم من الجهمية والمعتزلة و الأشاعرة ، فمذهب الجهمية جواز تكليف ما لا يطاق، كأمر الأعمى أن يبصر، وأمر الزَمِن أن يسير إلى مكة[٣]، ومذهب المعتزلة منع تكليف ما لا يطاق، قالوا : لأنه قبيح ، والله منزه عن فعل القبيح ، فلا يجوز صدوره منه ، وهذا تابع لقولهم بالتحسين والتقبيح العقليين [٤].

أما الأشاعرة فلم يتفقوا في هذه المسألة حيث أطلق بعضهم جواز تكليف ما لا

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١٨١- ٣١٨٢ .

(٢) قال الجرجاني : " الاستطاعة ، هي عرض يخلقه الله تعالى في الحيوان ، يَفعل أو يُفعل به الأفعال الاختيارية ، والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع ، والطاقة متقاربة في المعنى في اللغة .
أما في عرف المتكلمين فهي : عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك ، انظر التعريفات للجرجاني ص ٣٥.

(٣) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٢٩٧ .

(٤) انظر : الحكمة والتعليل في أفعال الله ص ١٢٦ .

يطاق، وفصل بعضهم فيه [١].

وأما السلف فلم يؤثر عنهم كلام في هذه المسألة ، ولذلك قال شيخ الإسلام بعد أن حكى نزاع المتكلمين : " وإذا عُرف هذا فإطلاق القول بتكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام كإطلاق القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم ،.. وليس في السلف والأئمة من أطلق القول بتكليف ما لا يطاق ، كما أنه ليس فيهم من أطلق القول بالجبر، وإطلاق القول بأنه يجبر العباد كإطلاق القول بأنه يكلفهم ما لا يطيقون ، هذا سلب قدرتهم على ما أمروا به ، وذلك سلب كونهم فاعلين قادرين " [٢].

ويظهر لنا من كلام شيخ الإسلام الصلة بين القول بالجبر، والقول بجواز تكليف ما لا يطاق.

## موقف سيد قطب من مسالة التكليف بما لا يطاق :

قرر- سيد- مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في أن تكاليف الشرع كلها داخلة في طاقة الإنسان واستطاعته، وليس فيها ما هو فوق طاقتهم :

١ - في ظلال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]، يقول :أي " أنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم " [٤] " فالتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة ، لا تتجاوز الطاقة ، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ، .. ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه ، يحمل منها ما يطيق حمله ، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام " [٥]، " لأن العقيدة الإسلامية تعترف بالإنسان إنسانًا ، لا حيوانًا ولا حجرًا ، ولا ملكًا ولا شيطانًا ، تعترف به كما هو ، بما فيه من ضعف وما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسدٍ ذي نوازع وعقلٍ ذي تقدير، وروحٍ ذي أشواق ، وتفرض

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، ٨/ ٤٦٩- ٤٧١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٦٥٣، وفتح الباري لابن حجر ٤/ ١٣٥، ١١/ ٤٩٠، ١٣/ ٤٢٩، ٤٢٨ .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٦٥ ، ومجموع الفتاوى ٨/ ٤٦٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٣٣ .

(٥) في ظلال القرآن ١/ ٢٠٨- ٢٠٩ .

عليه من التكاليف ما يطيق ، وتراعي التنسيق بين التكاليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات .. ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه وجزائه على عمله في النهاية فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يستثقلها.

وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه ، وهذا التصور يسكب في القلب الراحة والأنس ، ويستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكليفه ، لأنه يحس أنها داخلة في طوقه ، ولو لم تكن داخلة في طوقه ما كتبها الله عليه " (١).

٢- في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢)، يقول سيد: " وهو تكليف محفوف برحمة الله،.. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته " (٣)، " وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها " (٤).

٣- في ظلال قوله تعالى ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٥). يقول سيد: " لقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، لا يظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون ، ولا يبخسهم شيئًا مما يعملون .. والعلة في عدم طاعتهم ليست هي تكليفهم بما هو فوق الطاقة ، إنما العلة أن في قلوبهم غمرة لا ترى الحق " (٦).

٤- في ظلال قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ (٧) ، يقول- سيد-: " وهذا هتاف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة،

(١) المصدر السابق ١/ ٣٤٤ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٢/ ١٢٩١ ، ٦/ ٣٣٠٢ .
(٢) سورة الحج ، الآية ٧٨.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٦ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦١٦ .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٦٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٣ بتصرف يسير .
(٧) سورة التغابن ، الآية ١٦ .

وفي القيد " ما استطعتم " يتجلى لطف الله بعباده وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته، وقد قال رسول الله ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " (١)، " فالطاعة في الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع، أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان" (٢)، " فالتصور الإسلامي يُعلِّم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف واضحة ، ونهاه عن أمور كذلك واضحة ، وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا غبش ، معلومة للإنسان ، ويحاسب عليها بعد ذلك – وطريق المسلم أن ينهض بالتكاليف الواضحة – ما استطاع – وأن يجتنب النواهي المحددة كما نُهي ، وما كان الله – سبحانه – ليكلفه شيئًا يعلم أن لا طاقه له به ، أو أنه ممنوع بمانع قهري عن النهوض به ، أو أنه مدفوع بدافع قهري لا يقاوم لإتيانه... وما يؤمن بالله من لا يؤمن بأن الله لا يكلفه بشيء فوق طاقته ، ولا ينهاه عن شيء ليس في مقدوره الانتهاء عنه وفي هذه الكفاية " (٣).

## الفرع الخامس : الحكمة والتعليل في أفعال الله:

وهذه المسألة من المسائل المتعلقة بأفعال الله، وما يحكم به في عباده قدرًا أو شرعًا، وقد حصل حولها خلاف بين أهل السُّنَّة وبين بعض الفرق.

**وهذه المسألة كما يقول ابن القيم - رحمه الله -:** " من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر بالشرع والقدر" (٤).

والمراد بالحكمة والتعليل في أفعال الله : هل أفعال الله وأوامره معلّلة بالحكم والغايات ؟ ، وقبل ذكر موقف سيد قطب – رحمه الله – منها يمكن استعراض آراء الفرق بإيجاز كالآتي:

**أهل السُنّة والجماعة :** يرون أن لله تعالى فيما يقضيه حكمًا وأسرارًا قد تكون معلومة للعباد ، وقد تكون خفية عنهم ، وأن أفعال الله سبحانه تعلل بالحكم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة ٦/ ٢٦٥٨ رقم ٦٨٥٨، ومسلم في الحج ٢/ ٧٩٥رقم ١٣٣٧.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٧٥٩٠.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣٤- ١٣٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص٥٤ .

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٤٢ .

والغايات الحميدة التي تعود على الخلق بالمصالح والمنافع ، ويعود إلى الله تعالى حبه ورضاه لتلك الحكم ، وهذه الحكم مقصودة ، ويفعل لأجل حصولها ، كما تدل عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة " [١].

**المعتزلة :** يثبتون الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ، لكنهم يوجبون على الله بمقتضى الحكمة أمورًا ، ويمنعون عليه أمورًا لمخالفتها مقتضى الحكمة في زعمهم وبمحض عقولهم [٢].

**الأشاعرة :** يرون أن أفعال الله لا تتوقف على الحِكَم ، بل الحِكَمُ مترتبة على الأفعال وحاصلة عقيبها فهي ليست مقصودة ومطلوبة بالفعل [٣].

**الفلاسفة والجهمية :** ينفون الحكمة والتعليل في أفعال الله ، ويقولون : إن الله تعالى خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداعٍ ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة[٤]

## موقف سيد قطب من الحكمة والتعليل في أفعال الله :

يرى سيد قطب–رحمه الله– أن الله تعالى فاعلٌ مختار، وأن فعله عن علم وحكمة، وأن حكمته موافقةٌ لمشيئته سبحانه ، وأن الحكمة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي ، وأن الواجب التسليم سواءً عرفنا الحكمة أو لم نعرفها ، كما أنه من الأدب في حق الله تعالى عدم السؤال عن الحكم والغايات الخفية وعدم الجزم بشيء لم يُنص عليه أنه حكمة وعلة .

---

(١) ينظر : فتح الباري لابن حجر ١/ ٢٢١ ، ١٣/ ٤٥٠ ، ومنهاج السُّنَّة لابن تيمية ١/ ١٤١ ، والقضاء والقدر للمحمود ص٢٤٦، والحكمة والتعليل في أفعال الله د/ محمد ربيع ، ص ٤١ .

(٢) المغني في أبواب العدل والتوحيد ، القاضي : عبد الجبار أحمد الهمذاني ، تحقيق : النجار ، طبعة القاهرة عام ١٣٨٥هـ ، كتاب التكليف ٨/ ٩١ وما بعدها ، والقضاء والقدر للمحمود ص ٢٤٣، ٢٤٤ ، والحكمة والتعليل في أفعال الله، د/ محمد ربيع ص ٥٢ .

(٣) انظر : المحصول للرازي، تحقيق د/ جابر العلواني،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، عام ١٤١١هـ ٥/ ١٩٢، ونهاية الأقدام للشهرستاني ص ٣٩٧ ، وشرح المواقف للإيجي ص٢٣٥، والإرشاد للجويني ص٢٦٨وما بعدها ، والحكمة والتعليل د/ محمد ربيع ص٥٢.

(٤) الإشارات لابن سيناء ، ٣/ ١٥٠ ، وشرح الإشارات للطوسي ٣/ ١٥١ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤٤ ، والقضاء والقدر د/ عبد الرحمن المحمود ص٢٤٣.

**ويمكن بيان موقفه هذا من خلال النقاط الآتية :**

يقرر سيد أن وراء كل حدثٍ وكل حُكم علة وحكمة لله سبحانه ، وليس من الضروري إدراكها حتى نؤمن بها فيقـول: " وكل شيء عند الله بمقدار، وكل أمر مرهونٌ بوقته المرسوم، وإنما تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كلَّ شيء في مكانه ، وكل حدث في إبانه " (١)

ويقول عند حديثه عن الحكمة من الإفطار في السفر والمرض بعد أن قرر أن العلة هي إرادة اليسر بالناس : " ونحن لا ندري حكمة الله كلها في تعليقه – أي الفطر – بمطلق المرض والسفر إطلاقًا فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ، ويجهلها البشر.. وما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فنحن لا نتأولها ، ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتها ، فوراءها قطعًا حكمة ، وليس من الضروري أن نكون نحن ندركها .. والأولى على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التي أرادها الله في هذا الدين فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من مصالح قريبة وبعيدة ، وهذا هو جماع القول في هذا المجال" (٢).

وينتقد بعض المفكرين الإسلاميين – قديمًا وحديثًا – الذين يجعلون للعقل سلطة الحكم النهائي في قضايا الدين، ويقرر أن الدين من عند الله ثم يقول : " وبالتالي متى أصبحت هذه القاعدة الكبرى مسلمًا بها، أصبح من منطق الإدراك البشري أن يسلم بعد ذلك تلقائيًا بكل ما ورد في هذا ، ولا يهم عندئذٍ أن يرى "المصلحة " متحققة فيه في اللحظة الحاضرة ، فالمصلحة متحققة حتمًا ما دام من عند الله " (٣). " فحكمة الخالق قد تدرك بعد مراميها وقد لا تدرك ، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها " (٤).

أنه ليس من الأدب مع الله الإغراق في البحث عن الحكم – أو قصرها على حكمة معينة بناءً على تصور العقل البشري، والجزم بأنها هي العلة دون أن يكون عليها نص صريح. يقول – رحمه الله – : " إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٦٨- ١٦٩ بتصرف .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٢٣ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢٨١ و ١/ ٥٢٥ .

والعبادات الإسلامية، يندفعون أحيانًا في تعليل هذه الأحكام، بصورة توحي بأنهم استقصوا هذه الحكمة، فلم يعد وراء ما استقصوه شيء، وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية، ما لم يكن قد نص على حكمتها نصٌ، وأولى أن نقول دائمًا: إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم، وأنه قد تكون دائمًا هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها! وبذلك نضع عقلنا البشري - في مكانه - أمام النصوص والأحكام الإلهية، بدون إفراط ولا تفريط.

أقول هذا - لأن بعضنا - ومنهم المخلصون - يحبون أن يقدموا النصوص والأحكام الإسلامية للناس، ومعها حكمة محددة، مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم، أو مما كشف عنه " العلم الحديث " وهذا حسن - ولكن في حدود - ما أشرنا إليه "[1].

وعند حديثه عن عدم فرض الجهاد في مكة، يقول: " أما حكمة هذا - أي عدم فرض الجهاد في مكة - فلسنا في حل من الجزم بها، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا، قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم - سبحانه- أن فيها الخير والمصلحة.

وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم في شريعة الله - لم يبين الله سببه محددًا جازمًا حاسمًا - فهمها خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم، أو طريقة أداء ذلك التكليف، مما يدركه عقله ويحسن فيه، فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال، ولا يجزم - مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله - بأن ما رآه هو حكمةً، هو الحكمة التي أرادها الله - نصًا وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء.

فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله، ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة، بهذا الأدب نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب، على أنه مجرد احتمال، وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٦٩.

أسبابًا وعللًا لا يعلمها إلا هو،ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح "[١].

وعند الحديث عن تحريم الخمر يقول : "ولا نريد أن ندخل في الجدل الذي آثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس ، هل هو ناشئ عن أمر الشارع - سبحانه - بتحريمها ، أم أنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها ، وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها ، أم أن هذه الصفة تلزمها من التحريم ، فهو جدل عقيم في نظرنا وغريب على الحس الإسلامي .

والله حين يحرم شيئًا - يعلم - سبحانه - لم حرمه ، سواءً ذكر سبب التحريم أو لم يذكر ، وسواء كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم ، أو لعلةٍ تتعلق بمن تناوله من ناحية ذاته أو من ناحية مصلحة الجماعة .

فالله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله ، ولا يقولن أحد : إذا كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم فكيف أبيح إذن قبل تحريمه !! فلا بد أن لله - سبحانه - حكمة في تركه فترة بلا تحريم ، ومرد الأمر كله إلى الله ، وهذا مقتضى ألوهيته -سبحانه - .

واستحسان الإنسان واستفتاحه ليس هو الحكم في الأمر ، وما يراه علة قد لا يكون هو العلة ، والأدب مع الله يقتضي تلقي أحكامه بالقبول والتنفيذ ، سواء عُرِفَت حكمتُها أو علتها أم ظلت خافية والله يعلم وأنتم لا تعلمون "[٢].

للمؤمن أن يقف عند الحِكَم والعلل التي جاءت صريحة في بعض الأحكام والنصوص ، وأن يستشرف بعض الحكم مما ليس منصوصًا عليه صراحة لكن في ظل الضوابط السابقة .

## ومن أمثلة تعامل سيد مع النوعين السابقين ما يأتي :

### أ - الإيمان والتسليم بالحكم المنصوص عليها : ومن الأمثلة :

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣]، حيث يقول سيد : "وهذا النص الصغير يحتوي على حقيقة ضخمة هائلة .. ذات جوانب متعددة

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٣- ٧١٤ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٨ .
(٣) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

أول هذه الجوانب: أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة من قام بها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجودة .. وهي العبادة " (١).

الثاني:قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (٢).حيث يقول سيد : " لقد كان تحويل القبلة أولًا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها الآية ، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومي ، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله ، وتجريدها من التعلق بغيره وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة ، .. فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية .. وليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مجردًا من كل إيحاء آخر، إتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازًا بنعرة جاهلية . حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ ، وفي ذات الوقت بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم ، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام،.. فتوجه المسلمين فترة إلى المسجد الأقصى كان لحكمة خاصة كما سبق وتحويلهم إلى المسجد الحرام كان لحكمة التميز عن اليهود والنصارى أيضًا " (٣).

**ب – الأمور التي لا تبدو لنا حكمتها نصًا هي على نوعين :**

١ – أمور لا يمكن إدراك العلة والحكمة فيها : وفي هذه الحالة يجب على المؤمن التسليم بها دون خوض أو سؤال عن العلة ، وقد ذكر سيد – رحمه الله – من أمثلة ذلك :

قوله تعالى:﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤)،يقول سيد : " فأما المؤمنون فقد تلقوا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ١٣٨٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٢٦– ١٢٧.
(٤) سورة المدثر ، الآية ٣٠ .

كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، فلم يعد يماري في خبره وقوله ، وأما المشركون فتلفقوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان والتوقير لله .. وراحوا يتهكمون عليه ويسخرون منه.. عندً ذلك نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله من ذكر هذا الجانب الغيبي وذكر هذا العدد ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.. فهم لا يعرفوا مواضع التسليم ومواضع الجدل، وما دام هذا الأمر غيبيًا ، فلا مجال للجدل فيه ..

أما لماذا كانوا تسعة عشر " أيًا كان مدلول هذا العدد " فهو أمر يعلمه الله ، الذي خلق كل شيء بقدر، وهذا العدد كغيره من الأعداد ، والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض ، لماذا كانت السماوات سبعًا ، لماذا كان خلق الإنسان من صلصال ، وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ، ويفعل ما يريد هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور " [١]. فالله لا يُسأل عما يفعل.

ب- ما يمكن إدراك بعض حكمه : وهنا يقف المؤمن عندها لكن دون جزم بأنها هي وحدها ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٢] ، يقول سيد : " ويبدو لنا في حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات ، وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل حكمة التشريع ، ولا يتوقف خضوعنا له وتسليمنا به ، ورضاؤنا إياه على إدراكنا أو عدم إدراكنا لهذه الحكمة ، فحسبنا أن الله قد شرعه لنستيقن أن وراءه حكمة وأن فيه مصلحة .

**نقول : يبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات :**

**الأول :** أن امرأة الأب في مكان الأم .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٨ بتصرف ، وينظر أيضًا ٤/ ٢٣٧٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٢٢ .

الثاني : ألا يخلف الابن أباه، فيصبح في خياله ندًا ، وكثيرًا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعًا، فيكره أباه ويمقته .

الثالث : ألا تكون شبهة الإرث لزوجة الأب ، الأمر الذي كان سائدًا في الجاهلية، وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء .

لهذه الاعتبارات الظاهرة – ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا – جعل هذا العمل شنيعًا .. وفاحشة ومقتًا " [١].

وينظر أيضًا كلام سيد عن الحكمة من تأخير العذاب للمشركين وغيرها [٢].

## الفرع السادس : الأجل والتقدير

تواترت الأدلة من الكتاب والسُّنَّة على أن الآجال مقدرة معلومة، وأنها لا تُغيرَّ ولا تُبدَّل، ولا يُزاد فيها ولا يُنقص، قال تعالى ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٣] ،وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [٤]، وغيرها.

وفي الحديث أن أم حبيبة [٥] –رضي الله عنها– قالت : " اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبى سفيان [٦] وبأخي معاوية ، فقال النبي ﷺ : قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئًا قبل حله ولن يؤخرّ شيئًا عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيرًا وأفضل " [٧].

فالله قدر وقضى أن هذا يموت بالمرض وهذا بالقتل وهذا بغيره من الأسباب، فالمقتول ميت بأجله كغيره من الأسباب .

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦٠٧ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤٧ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٤٩ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ٣٨ .
(٥) هي : رمله بنت أبي سفيان بن صخر ، ولدت قبل البعثة ب ١٧ سنة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، ثم ارتد وتنصر وثبتت هي فأبدلها الله خيرًا منه رسول الله ﷺ، توفيت سنة ٤٤هـ انظر : الاستيعاب ٤/ ٢٩٦ والإصابة ٤/ ٢٩٨ وسير أعلام النبلاء ٢١٨-٢٢٣ .
(٦) هو :صخر بن حرب بن أمية ،أبو سفيان القرشي الأموي ، ولد قبل النبي ﷺ بعشرين سنة ،أسلم عام الفتح ، وتزوج الرسول ﷺ ابنته أم حبيبة قبل أن يسلم ، توفي سنة ٣٤ هـ انظر : الإصابة لابن حجر ٢/ ١٧٨-١٨٠ .
(٧) رواه مسلم في كتاب القدر، ٤/ ١٦٢٧ رقم ٢٦٦٣ ، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٠.

وخالف المعتزلة فقالوا : المقتول مقطوع عليه أجله ، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، فكأن له أجلان، وهذا باطل لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلا يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله ، أحد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب[١].

## موقف سيد قطب من قضية الآجل والتقدير:

قرر سيد قطب - رحمه الله - في هذه المسألة ما قررته النصوص الشرعية ، وما عليه أهل السُّنَّة والجماعة حيث يقول : " إن كل أمر مرهونٌ بوقته الموسوم ، وإن الأمور تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية ، التيً تضع كل شيء في مكانه وكل حادث في إبانه ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين " [٢].

**ويقول أيضا:** " إن لكل نفس كتابًا مؤجلًا إلى أجل مرسوم، ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم ، فالخوف والحرص والتخلف لا تطيل أجلًا ، والشجاعة والثبات والإقدام لا تقصر عمرًا، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد .. فكلٌ يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب " [٣]. "وإذا حل الأجل سعى صاحبه بقدميه إليه " [٤].

" والنهاية واحدة : موت أو قتل في الموعد المحتوم والأجل المقسوم " [٥].

" فالموت حتمٌ في موعده المقدر، ولا علاقة له بالحرب والسلم ، أو حصانة المكان التي يحتمي به الفرد أو قلتها ، أو بالتعرض للناس في الجهاد .. إنما العلاقة بين الموت والأجل، بين الموعد المقدر وحلول ذلك الموعد " [٦]، " والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل " [٧].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٧ - ١٢٨.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧١.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٧ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٤٩٧ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٩٨ .
(٦) المصدر السابق ٢/ ٧١٦ .
(٧) المصدر السابق ٢/ ٧٤٢ ، وينظر أيضًا ٢/ ٧٤٥ .